الجامعة الأردنية
منشورات عمادة البحث العلمي
(٢٠٠٥/٤)

الجدار الزجاجي

سناء كامل شعلان

المجموعة القصصية الأولى للجامعة الأردنية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٧٥٨/١١/د

٨١٣,٩

شعلان، سناء كامل

الجدار الزجاجي/ سناء كامل شعلان. – عمان.

المؤلف،٢٠٠٥

(٢٣٣) ص.

ر . أ. : ٢٧٥٨/١٢/٢٠٠٥

الواصفات : القصص العربية// قصص قصيرة

- **تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية**

إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الفِهرست

الفِهرست	3
الإهداء	5
إهداء مسروق	7
التقديم	9
١-سداسية الحرمان	15
٢-أكاذيب البحر	37
٣-الكابوس	61
٤-الباب المفتوح	75
٥-الجدار الزجاجي	83
٦-ملك القلوب	95
٧-الطيران على ارتفاع ١٠٠٠ دقّة قلب	107
٨-صديقي العزيز	117
٩-اللوحة اليتيمة	129
١٠-رجل محظوظ جداً	141
١١-دقلة النّور	159
١٢-الصورة	169
١٣-الذي سقط من السماء	183

١٤-أرض الحكايا 193
١٥-مدينة الأحلام 203
١٦-البلورة 209
١٧-أبناء الشيطان 221
١٨-الشيطان يبكي 229

الإهداء...

إلى أسطورة الحبّ الكبرى في حياتي...إلى أبي وأمي.

إلى رجلٍ يتّسع قلبه لكلّ الدنيا...إلى نبيل المجالي.

إهداء مسروق...

إلى سليل الأساطير والعمامات السوداء الذي سافر،ولم يعدْ بعد أن كتب على عجلٍ عبى بوابة صحرائها:

"كانت مدينةُ القحــط طيلــة ســنوات ثــلاث مدينــة لا تُطاق،كنتُ أتمنّــى الخــلاص منها،وتركهــا فــي أســرع وقت،لكن عينيــك صــيّرتا القفــر واحــةً يهــوي القلــب إليــها،ليسأتريح فيها من عناء الدنيا،فإليــك يامن صيّــرت الموت حياةً أهدي حُبي".

أكاذيب البحر:ص٦٤

تقديم

د.إبراهيم خليل

هذه مجموعة قصصية أولى للكاتبة الآنسة سناء كامل شعلان التي عرفتها منذ سنوات طالبة في برنامج الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة الأردنية، وكانت نِعْمَ الطالبة الباحثة التي لا تدّخر جهداً في سبيل البحث والتمحيص، ولا تكتفي بما يُقال في المحاضرة، وتأبى أن تؤدّي دور المتلقي البائس الذي لا يعرف البحث ولا الاستقصاء ولا التعلّم الذاتي. وعندما اختارت موضوعاً لإعداد أطروحة الماجستير تأكّد لي مقدار ما لديها من طموح، وما تملك من استعداد للاطلاع، وقدرتها على الجمع والتحليل والتصنيف والاستنتاج. فكانت رسالتها حول السرد الغرائبي والعجائبي في القصة القصيرة والرواية في الأردن رسالة علمية جادة بحق، حتى أنّ المحكمين في وزارة الثقافة قد أوصوا بنشرها من غير أيّ تعديلات، وذلك شيء قلّ أن يظفر بمثله مخطوط. وصدرت الرسالة في كتاب، وأصبحت مرجعًا يفيد منه الطلبة والباحثون.

وكانت سناء شعلان قد أطلعتني على قصص قصيرة كتبتها. وفازت في إحدى المسابقات التي نظّمتها الجامعة في قسم اللغة العربية، ثم فازت بجوائز أخرى، وظهرت لها عن منشورات الدائرة الثقافية بأمانة عمّان رواية "السقوط في الشمس" وقد حظيت هي

الأخرى بإعجاب الكثيرين، حتى أنّها فازت بجائزة "الناصر صلاح الدين الأيوبي"، وكرّمت لذلك أحسن تكريم، ثم فازت بجائزة الدكتورة سعاد الصباح للقصة القصيرة عن مجموعتها القصصية "احكِ لي حكاية"، ثم فازت بجائزتي البجراوية وأدباء المستقبل.

ومن المؤكّد أن قارىء قصص سناء شعلان يجد فيها قصصاً تشدّه، وتدخل المتعة إلى نفسه، بعد أن ذاع من ألوان القصص الحكايات البعيدة عن الشويق بحجة التجريب، وطوراً بحجة الحداثة. فقصص سناء شعلان على الرغم من ميلها الواضح للحداثة والتجريب لا تستغني عن عنصر الحكاية ،ولا تخلو أيّ قصة منها من التشويق. ومما يزيدها قوة لغتها القصصية الجميلة، إذ إنّها لغة مصقولة، تعهدتّها الكاتبة بالتهذيب والتشذيب حتى صارت لغة أنيقة في غير تكلّف ولا اعتساف.

أما شخوص قصصها فأكثرهم شخصيات هامشية من عامة الناس. من ذلك مثلاً بطل القصة الموسومة بـ"صديقي العزيز" أو بطل القصة الموسومة بـ"رجل محظوظ جداً " أو بطل قصة "اللوحة اليتيمة" وغيرها ،فهي لا تنتقي أبطالها من المثقفين أو من طبقة اجتماعية عليا، وبذلك تقترب من القارئ ،وتختصر المسافة بينها وبين المتلقي.ولكن هذا لا يعني أنّ قصصها تسير في اتجاه واحد، وهو اتجاه الارتباط بالواقع من حيث هو مادة الخيال السردي، بل بالعكس، فنحن نجد في قصصها تلويناً وتنويعًا في مزج الخيال بالحقائق، والجمع

بين الغرائبي والـواقعي. كمـا أنّهـا تعتمـد الأسـاطير والأبطـال الأسطوريين، متخذة من البطل الأسطوري علاقة وآلة ورمزًا يوحي أكثر مما يقول، ويعبّر أكثر مما يصف.

ومثلما أشرت قبلاً فإنّ عناية الكاتبة سناء شـعلان بـالحوادث التي هي مادة القصة إلى جانب الشخصية عناية أوضح من أن تحتاج إلى طويل تأمّل، وعميق تدبّر وتفكّر. فهي حوادث تتخللهـا مواقـف وحوارات تساعد القارئ في بعض الأحيان على استكمال الـصورة، وإدراك التسلسل الغائب شكلياً في النص، لما تجنح إليه أحيانـاً مـن الترتيب غير التسلسلي للحكايـة أو اللجـوء إلـى تقنيـات الحـذف والإضمار والاستباق والاستشراف، فليس كلّ ما ترويه الكاتبـة فـي القصة مذكوراً فيها ذكرًا مفصلاً، فقد تعتمد القصة لديها على الابتداء بالخاتمة أو النهاية تاركةّ للقارئ أن يعيد ترتيب الحوادث التفـصيلية في ذهنه مثلما نجد في قصة اللوحة اليتيمة مثلاً. وهذا نهـج شـائع ومعروف في القصة يلقي على القارئ بـبعض المهمـة، وهـي أن يشارك في تصوّر الحدث ،واستخلاص الدلالة الأدبية من النص.

على أنّ هذه المجموعة من القصص إذا أضيفت لرواية سـناء شعلان الأولى"السقوط في الشمس" وما يرافق ظهـور أعمالهـا الآن وفي المستقبل من التكريم ينبغي ألا يـشغل الكاتبـة عـن مواصـلة مشروعها الإبداعي الأكاديمي باستكمال رسـالتها للـدكتوراه حـول الأسـطورة في روايات نجيب محفوظ؛ ذلك لأنّ خطورة الاستسلام

لبريق الإبداع والشهرة قد تكون له عواقــب، منهــا صــرف الطالب النبيه عن متابعة التحصيل والبحث. ولا أتوقع من هذه الكاتبة أن تضحي بما ينفع الناس في الأرض لأجل الزبد الذي يذهب جفاءً.

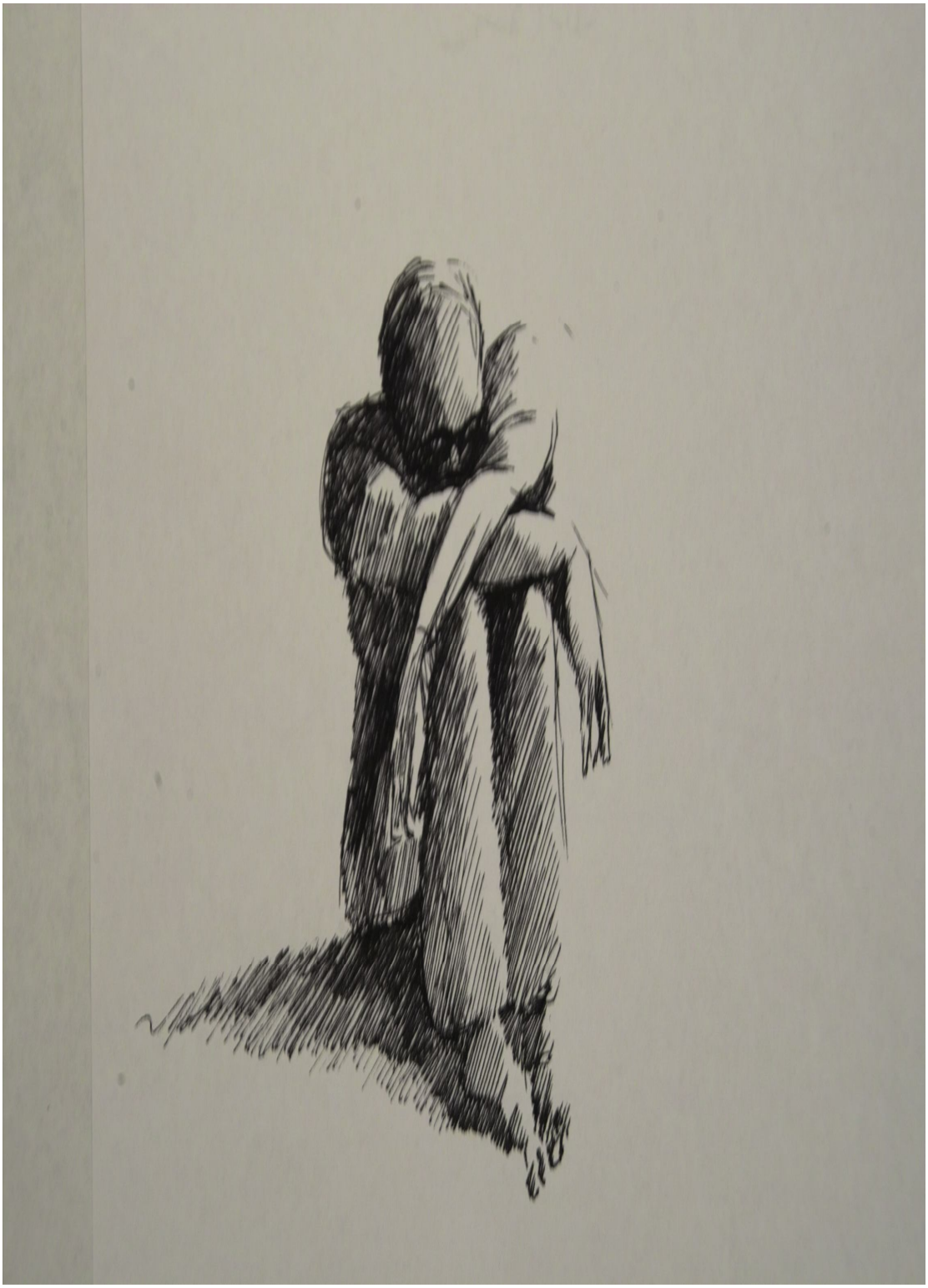

سداسيّة الحرمان

(١)
المتوحِّش

يعيش متأبّداً متوحّشاً على هذه الجزيرة الجرداء القاحلة إلاّ من صخورها ذات النّتوءات الحادّة، والنّوارس الحزينة، والأسماك التّي يقتاتها نيّئةً فيها أثر روح، لا يعرف إن كان متوحّشاً من الزّمن الحجريِّ، أم وليد قومٍ غرقوا في البحر الذّي لفظه وحيداً على هذه الجزيرة، أم أنّه منفيٌّ عن البشريّة لأمرٍ ما، يقطع السّنين وحيداً، ويعدُّ الأيّام متشابهة، من قال إنّه يفكّر أصلاً في من يكون؟ أو إلى أيِّ الأزمان والعصور ينتمي، فكرة الزّمن عنده فكرةٌ معلّقة ومفرَّغةٌ من أبعادها النّفسيّة والفسيولوجيّة، والزّمن عنده لا يساوي إلاّ بمقدار جوعه، ولا يُدرك إلاّ بأفول ليلٍ ومجيء آخر .

لا يشعر بملٍ ولا بأيِّ شيءٍ آخر قد يكون نقيضاً للملل، لأنّه بكلِّ بساطةٍ لا يعرف نفوراً من التّكرار والرّوتين اللذّين يتلخّصان في

الأكل والشّرب،وفي ذرع الجزيرة ذهاباً وإياباً دون هدفٍ محدّد، لكنّه يعرف تماماً قيمة الرّوائح والأصوات، كما يعرف قيمة ذلك الحجر المدبّب الرّأس المثبت إلى طرف عصا طويلة قويّة قطعها من أحد الأشجار البريّة المعمّرة في الجزيرة، فبمعرفة الرّوائح والأصوات يُدرك اقتراب العدوّ الحيوانيّ منه، ويُحدّد مكانه، وبحجره الحادّ يستطيع أن يدافع عن نفسه، فضلاً عن أنّه يستطيع بوساطته أن يصطاد الأسماك التّي تسبح قريباً من الشّاطئ بسهولةٍ ويسر، ليقتاتها إلى حدّ الشّبع.

لقد ألف كلّ الرّوائح وكلّ الأصوات حتّى باتتْ من أبجديّات بيئته الطّبيعيّة، لكنّ تلك الرّائحة التّي داهمته ذات صباح قد أرعبته، وكادت تصيبه بحالةٍ ذعرٍ شديدةٍ تنتهي بالصّراخ والدّقّ على الطّبول، كانت رائحةً مثيرة لم يعرفها من قبل، صمّم على أن يعرف مصدرها، تسلّح بحربته ذات النّصل الحجريّ، ولباسه الجلديّ الذّي سلخه عن جسد أحد أعدائه الحيوانيّين، وتابع مصدر الرّائحة، وسرعان ما وجد عدوّه، كان حيواناً كما توقّع، لكنّه حيوانٌ لم يره من قبل، له نفس قامته وطوله، شعره أطول، وأعضاؤه أدقّ، وله بروزٌ غريبٌ في الصّدر، لعلّه مصابٌ بمرضٍ ما، دعى الحيوان الجديد بصراخه ونظراته المتحدّية إلى صراعٍ حتّى الموت، وتحفّز لذلك مُستفزّاً من رائحته الغريبة.

لكنّ الحيوان الغريب لم يستجب، وضحك مليّاً، ووجد نفسه مدفوعاً بفضولٍ غريب إلى تحسسه لا سيّما تلك الكرتين المتكوّرتين

عند الصّدر، وجد في نفسه لذّةً غريبة إثر هذا التّحسّس الذّي كــرّره مرّةً أخرى، وشعر بأنّ عنده رغبةً غريبــة لا يعــرف معناهــا، ولا يدري كيف وقعت في نفسه، وكيف السّبيل إلى التّخلّص منها، وانقضّ على الحيوان ينوي أن يعضّه ليتخلّص من رغبته الغريبة، لكنّه اكتفى بلمسه بشفتيه ولعقهما بشهوةٍ غريبة.

وغدا الحيوان صديقه المفضّل الذّي يقاسمه كلَّ شيء، وبدأ يعتاد عليه، وعلى تكوّر بطنه الذّي يفرز حيواناتٍ صغيرةٍ لزجةٍ كسمكةٍ مهروسةٍ، كان ينوي أن يأكل تلك الحيوانات، لكنّه وجد نفسه يحبّها بشدّةٍ، ويدافع عنها إذا ما تعرّضت لأيّ هجومٍ من حيوانات الجزيرة، كما وجد نفسه يعامل الحيوان الكبير برقّةٍ، ويألف جسده الغريب ذا الأعضاء الغريبة، ويعطف عليه، ويحضنه ليلاً بكلِّ شغف.

تعلّم بعض الكلمات من الحيوان الذّي لم يعرف من أين جاء أبداً، فعرف أنّ اسمه رجل ، وأنّ اسمها امرأه وأحياناً كيلا، وأنّ اسم الحيوانين الصّغيرين كيكو وهوهو، ثم بات يشعر بشيءٍ يسمّى زمناً طويلاً، إذا ما غابت كيلا، ويشتاق بشدّةٍ إلى كيكو وهوهو، كما كان مشتاقاً ليعرف المزيد عن كيلا وعن نفسه، وعمّا وراء البحر هناك في الأفق المائيّ ، الذّي بات من عادته وكيلا أن يراقبا سقوط الشّمس فيه كلّ مساء.

كاد يخــترع كلمةً تعبّر لكيلا عن أشــواقه، وعن فرحته بها،

واعتياده على رائحتها، وولعه بأعضائها الغريبة، وارتياحه لمرآها، لكنّ ذلك لم يكن ،فقد جاء رجالٌ كُثرٌ بملابس غريبة، وأسلحةٍ حادّة، اصطادوا الكثير من حيوانات الجزيرة، وأقاموا حفلةً غريبة، ثمّ اختطفوا كيلا والطّفلين، وتركوه وحيداً بعد معركةٍ طويلةٍ خاسرة، كان مثخناً بجراحه، ولكنّ حزنه على كيلا كان أعظم، لزمنٍ طويل فكّر في الكلمة التّي كان من المناسب أن يخترعها لكي يقولها لكيلا، ثم انقطع عن بحثه الحزين؛إذ لم يكن هناك حاجة لأيّ كلمات بعد غياب كيلا.

(٢)
المارد

في الألفيّة الأولى له تمنّى وهو في قمقمه أن يخرج ولو لدقائق من سجنه الضّيق، في الألفيّة الثّانية توعّد البشر بالهلاك والعذاب، لكنّه في الألفيّة الثّالثة بات يحلم بجنيّةٍ يعشقها، ويشتم رائحةّ دخّانها الجهنّميّ باشتهاءٍ عظيم، ولكنّ حلمه طال، طال لألفيّةٍ رابعة. كاد ينسى حلمه، عندما فُتح قمقمه النّحاسيّ، لم يصدّق أنّه يرى النّور لأوّل مرّةٍ منذ أربعة آلاف سنة، فتح عينيه بتثاقل، زفر بشدّةٍ، فثار الغبار في رئتيه، اضطرب بقوّةٍ، خرج من القمقم بنزقٍ على شكل دخّانٍ جهنّميّ، ثمّ استوى ماردًا عظيمًا .

توقّع أن يكون خادمًا مطيعًا لساحرٍ شرير، أو لملكٍ ظالم، أو لشابٍّ طامح، لكنّه ما توقّع أن يكون خادمًا لعذراء أنسيّة، كانت جميلة بمقدار جمال الحرّيّة، مثيرة بقوّة سنين الحرمان، شعر بقلبه يزيغ نحوها، تمنّى لو أنّها ترضى بالدّنيا يضعها عند قدميها، ليرى في عينيها لحظة رضىً واحدة، انحنى بجبروته وهيبته، فاهتزّت الأرض

لحركته، قبّل قدميها الصّغيرتين كما عينيّ ديك، احتواها بيديه، كانت بمقدار حفنة يده، لكنّها أشعلت فيه أشواق الدّنيا، وذكّرته بشيءٍ كاد ينساه، ذكّرته بأنّه رجلٌ جنيّ يحتاج إلى امرأة.

في لحظة جعلها ملكة الدّنيا، دانت لها كلّ ممالك الأرض، وجاءها رجال الدّنيا صاغرين، كانت سيّدتهم جميعاً، وسيّدته هو بالذّات، إلاّ ذلك الفتى الذّي جاء من أبعد ممالك الدّنيا، فقد أعياها تمرّداً، وأتعبها صدّاً، منذ أن جاء باتتْ تسهر لياليها باكيةً، ويسهر المارد إلى جانبها حائراً، عرض عليها أن يسحقه بقدميه، فيزول، ويزول معه السّهر والبكاء، لكنّها رفضت، وأمرته بحراسته من كلّ مكروه.

وكان اللّقاء بين أميرته وفتاها،الذي فاوضها على ملكها، فتنازلت له عنها، أمرها أن تلزم قصرها، فصغرتْ، نظر شمالاً ويميناً، وقال لها: "وماذا عنه؟"

قالت بولهٍ: "هو من؟"

- "مارد القمقم".

سألت بقلق: "ما باله؟"

- "أنا لا أطيق أن يشاركني بكِ أحدٌ ولو كان مارد القمقم . . ."

قالت وهي تحبس دمعةً صغيرةً: "وأنا طوع أمركَ".

قال بحزم: "تخلّصي منه . . . إلى الأبد".

قالتْ بانسحاق: "ولكنّني أحبّه، هو صديقي المفضّل، وملاكي

الحارس".

- ولذلك أريد أن تتخلّصي منه".

بكلمةٍ واحدةٍ منها عاد المارد إلى قمقمه، أغلقت القمقم بحزن من يشيّع جنازةً، وأعطته إلى الحبيب الغيور، الذّي طوّح بالقمقم بعيداً في البحر، أحدٌ بعد ذلك لم يرَ المارد، إلى أن نعاه البحر لأمواجه ،لكنّ أسماك البحر سمعت صوت سكرات موته ،فقد تحطّم قلبه العاشق، وغدا ألف شظيّة على يديّ الإنسية الجميلة.

(٣)
الخصي

في قصر فخامته كبر ونشأ، لا يذكر من رجولته الميتة إلاّ لحظة الخصي، ورائحة الدّمّ، ولمعان النّصل في يديّ ذلك المجرم اليهوديّ الذّي خصاه في دنيا البحيرات وأشجار البلّوط، وأرسله في رحلةٍ طويلةٍ ليصل إلى هذا المكان، وليتربّع في حضن محظيّات القصر، ونساء فخامته اللّواتي دون الوصول إليهنّ الموت ورجولته المشلولة.

غيره من الخصيان يكتفون بالنّظر تعزيةً لرجولتهم المغادرة، أمّا هو فيرى في جسد الجميلات تحدّياً له، أمام كلِّ محظيّةٍ أو جاريةٍ أو شريفةٍ من شريفات القصر يرى دم رجولته مسفوكاً دون رحمة، يرى في تكليفه بحراسة نساء القصر وحمايتهنّ استفزازاً لكرامته، فقد حُرم أن يكون ذاته؛ لكي يكون أميناً على نساء القصر، حُرم رجولته ؛ليهنأ آخر اسمه السّلطان برجولته، حُرم من أن يمارس ذاته ؛ليحرس مخدع آخر يمارس نفسه بكلِّ اشتهاءٍ وشهوةٍ .

كثيراً ما سمع خصيان القصر يتندّرون بوصف نساءٍ جميلاتٍ،

ويتبارون في لعق التّمنيّات الجميلة عن جدران مخيّلاتهم، يتخيّلون أنفسهم بأعضاء كبيرة نشطة، تستبيح كلَّ جميلات القصر، ثمّ ينخرطون بمزاحٍ يشكّكون فيه في تصنيفهم الجنسيّ، ليروا أنفسهم في النهاية مسخاً حزيناً لرجلٍ وامرأة، مسخاً ليس له إلاّ أن يتمنّى ويتمنّى، ولا شيء أكثر، أمّا هو فينتبذ ركناً قصيّاً حيث لا يراه الحرس الرّجال الذّين يفوقهم قوّةً ونخوةً وشهامةً ليبكي حدّ الإزهاق.

لا يستطيع أن يمارس رجولته، ولكنّه يشعر بها تمور في داخله منذ أن جاءت تلك الجارية الخزريّة، اشتراها السّلطان بألف ألف درهم، واشترى لها جوهراً يُثقل عاتقها الصّغير بألف ألف درهم، شُغل القصر بجمالها لأيّامٍ، وشُغلتْ الإماء بتطييبها وتجهيز مخدعها لأيّامٍ أخر، واعتزل السّلطان لأسبوعٍ عن نسائه ومحظيّاته؛ ليكون لها في ليلة اكتمال البدر، وليفترعها بشوق المحروم.

لكنّ حزناً ما بقي في عينيها، حزناً يشبه أحزانه وحرمانه، راودته أحلامه كي يشتملها، ويقبّل فاها ولو مرّةٍ واحدةٍ، ولكنّه حبس نفسه دون ذلك عندما باحتْ له بسرّها العجيب، كانت عاشقةً لفتىً ما، وقد حالت الأسوار ما بينهما، كلماتها داست على آخر بقايا رجولته، رجته أن يساعدها، فوافق مكلوماً، كان سفيراً بين عالم أنوثتها، وعالم رجولة فتاها، وعلى أعتاب العالمين، طويلاً ما توقّف ليبكي رجولته، التّي ما استطاع أن يكونها، وما قدر على أن ينساها منذ أن اشتعلتْ أمنياته بمرأى جارية السّلطان .

في اللّيلة المشهودة التّي أرادها السّلطان مع جاريته، كان قد دبّر أمر فرارها لتكون مع فتاها الحبيب، ثارت ثائرة السّلطان الذّي يغضب بشدّة إن حُرم متعة الفراش مع امرأةٍ يشتهيها، أزبد، وأرعد، وتوعّد الكلّ بالعذاب، وعندما وصلت جاريته الآبقة إلى ما بعد الحدود مع فتاها كان رأس الخصي قد عُلّقَ على بوّابة القصر انتقاماً من خيانته، وتأديباً لغيره من الخصيان.

(٤)
إكليل العرس

أنامله ذهبيّة، بهاتين الكلمتين تصف النّساء وقع أنامله على شعورهنّ، تقف قبالته كلّ امرأةٍ تدخل إلى صالون التجميل الذّي يعمل فيه، يتأمّل مواطن أنوثتها، يداعب بشرتها، يتفرّس مساماتها، يعاين شعرها، ثمّ يدير قرص آلة التّسجيل، فيعُجُّ المكان بصوت إحدى روائع سمفونيّات بيتهوفن، لا يسمح بأيِّ ملاحظةٍ أو سؤالٍ أو توجيهٍ من أيِّ أحد، حتّى ولا من الزّبونة نفسها، تتناغم يداه مع موسيقى السّمفونيّات، يعزف بيديه على أنوثة الزّبونة، كما يعزف الموسيقار على آلته الأثيرة، يتخيّل الزّبونة امرأته هو بالذّات، يحاكي بألوانه قسماتها، يداعب بأنامله شعرها، يخلق وجلاتها وألوانها كما يشتهي هو بالذّات، ومع انتهاء معزوفة السّمفونيّة، ينتهي من الزّبونة، يتركها آلهةً للجمال، تطير الزّبونة فرحاً ورضىً بما فعل، وتنقده إكراميّة سخيّة، وتغادر الصّالون لتطير إلى حضن رجلٍ ما، ويبقى في فوضى أنوثتها المغادرة.

اسمه شأس، لكنّه مشهورٌ باسم شوشو أنامل ذهبيّة، جسده الصّغير وقدمه العرجاء جعلاه دون أعين النّساء، وبعيداً عن مطمح أيِّ امرأة، ولكنّ أنامله السّاحرة غرزته وبقوّةٍ في عالم النّساء، وحلّلتْ له لمس أجسادهنّ، وصنع جمالهنّ، وخلق ألوانهنّ وزينتهنّ. بدأ رحلته عامل نظافةٍ في هذا الصّالون المشهور الذّي ترتاده ثريّات العاصمة، ثمّ أتقن المهنة بفضل موهبته الغريزيّة في التّصدّي لجمال المرأة، وإبراز مفاتنها، وسريعاً ما نسي الكلّ شأس عامل النّظافة، وغدا شوشو أنامل ذهبيّة، الذّي يُبرز جمال النّساء، ويُطلق سحرهنّ.يسعده أن يعمل دون انقطاع، ولكنّ تجميل العرائس يدخل إلى قلبه الحزين متعةً وفرحةً خاصّةً تتناسب مع فرحة الثّوب الأبيض.

تأتي العروس إليه مزهوة بأطياف ليلتها المتمناة،مأخوذة بسحر أنوثتها التي ستتفجّر بعد ساعاتٍ على يديّ رجل، تزخر بالأحلام والسّعادة، مسكونةً بليلتها المقبلة، يداعب رقبتها ووجهها وكفّيّ يديها بحركاته اللّطيفة كي يهب جسدها المرونةً والاسترخاء اللازمين ،ثمّ يبدأ بتأمّل القسمات، يراقب الجسد والوجه من أكثر من زاوية، يفكّ أسرار أنوثة الزّبونة، ويهزّ رأسه بعد أن يعرف مواطن التّقصير، يدير قرص المسجّل الكهربائيّ، فتنبعث موسيقى السّمفونيّات، في فلك حركته البطيئة العرجاء حول مقعد العروس تدور أكثر من مساعدةٍ صامتةٍ، يناولنه الأدوات المطلوبة دون النبس ببنت شفة، يجذب شعر العــروس إلى جســده، يغرق كفّيه في شعرها، ثمّ ينضوه بشــغفٍ،

ليصفّفه وكأنّ هبّةً من نسيم الغابة قذفت به بعيداً، يزيّنه بحبّات اللّؤلؤ وصغار الزّهور البيضاء، يدهن الأظافر بطلاءٍ ورديٍّ جميل بعد أن يهذّبها، ويُطلقها بانسيابيّةٍ زهرة لوتس على صفحة ماء، ثمّ يأتي دور الوجه، يناغيه طويلاً، ويعطيه من ألوان الطّبيعة، فيبرز محجريّ العينين، ومبسم الفمّ، وألق الوجنتين، وطول الرّموش، وانسيابيّة الحاجبين، يلقي نظرةً أخيرةً، فيدرك أنّه قد انتهى من إفراز رجولته في قسمات أنثاه العروس، يعطّرها من العطر الذّي يعتقد أنّه يناسبها، ثمّ تأتي الخطوة الأخيرة، يمسك بالإكليل المحمول إليه بحذرٍ واهتمام، يقرّبه من العروس المنتشية بجمالها، يثبّته كما يجب، تغدو العروس بجمال أردية القمر، يبتسم لها، فترى ابتسامته مطبوعةً أمامها في المرآة، تصفّق المساعدات كعادتهنّ قائلاتٍ: "برافو، إبداع يا شوشو".يقترب باسماً من خدّ العروس قائلاً كعادته كلّما انتهى من تجميل عروس: "ألن تكون لي القبلة الأولى؟"تطبع العروس السّعيدة قبلةً عجلى على خدِّ شوشو الذّي يُعامل على أنّه الأخت الكبيرة للكلّ، وتخرج بثوبها الأبيض وإكليلها السّاحر، تتوجّه إلى السّيارة المنتظرة لجلالة جمالها الأنثوي لتكون في حضن عريسها، بعد أن تدسّ إكراميّةً كبيرةً في جيب شوشو، الذّي ليس له من عالم نسائه ذوات الأردية البيضاء الساحرة إلاّ أن يُزيّن وأن يودّع، يبتسم شوشو ابتسامةً ميكانيكيّةً اعتادها، يعلك علكةً في فمه بطريقةٍ استعراضيّة خليعة، ثمّ يقول: "إليَّ بالعروس التّالية . . ."

(٥)
فتى الزّهور

أراد عملاً قصيراً ونظيفاً بناءً على توصيات أمّه وله دخل مقبول ليشارك به في نفقات دراسته الجامعيّة المتعثرة بسبب انقطاعه عنها ليعمل في أعمالٍ تكسبه شيئاً من المال الذّي يحتاجه لدفع الأقساط الدّراسيّة، فتوسّط له العمّ موسى ليعمل في محلّ الزّهور الذّي يقع ضمن المجمّع التّجاري داخل الفندق الفخم الذّي يعمل حارساً ليلياً فيه، وقُبل في العمل نظراً لطلّته الجميلة، وهندامه المرتّب النّظيف، ومن يومها بات فتى الزّهور، الذّي يوصل الزّهور إلى من يطلبها بالهاتف، أو لمن تُرسل إليهم في مناسباتهم وأعيادهم، يقرع جرس البيت أو الشّركة، يقدّم الزّهور، فتتناولها الأيديّ بين نظرات الدّهشة والسّعادة، تُقرأ البطاقات، ثمّ تدسُّ في جيبه إكراميّة ما، يشكر مقدّمها أو مقدّمتها مبتسماً، ثمّ يُغادر على عجل، لينطلق في مهمّة إرسال زهورٍ أخرى.

يعترف بأنّه لا يحبّ الزّهور، ونظراً لفقره وارتفاع ثمنها، فإنّه

مجبرٌ على أن يظلَّ غير محبٍّ لها، ولكنّه يلفي نفسه على حين غرّةٍ معجباً بالزّهور، متقناً للغتها، فاكّاً لأبجديّة لغتها، يعرف اسم كلّ زهرةٍ، ويدرك معنى كلِّ لون، يستطيع أن ينسّق الألوان والأشكال وفق المناسبة وبناءً على طبيعة العلاقة، ثمّ يحملها، وينطلق بها.

يشعر بلذّةٍ كبيرةٍ لا يعرفها إلاّ من أتقن قراءة الوجوه، وفكّ معاني النّظرات والخلجات، عندما يراقب ردود أفعال النّاس تجاه الزّهور المهداة إليهم، يداعب الغرورُ قلبه، عندما ترتسم ابتسامةٌ على ثغر المتلقّي أو المتلقّية، وتداعب الأنامل الزّهور مداعبةَ استقبالٍ وإكرام، يشعر عندها بأنّه ملك الزّهور التي يُحسن اختيارها، كما يُحسن تلقينها الكلمات التّي عليها أن تقولها.

لكنّ زهور الحبّ بالذّات تهزّ قلبه الذي يخفق بشدة عندما يطالع الوجوه وهي تحمرّ مشحونة بمشاعر الاضطراب والحبّ عند تلقّي الزّهور العاشقة، الأنامل التّي تداعب الزّهور تعزف على أوتار قلبه الدّامي، يتنهّد عميقاً، ويتمنّى لو أنّ قلباً ما يُهديه زهرة حبٍّ، يأخذ الإكراميّة، وينطلق بعيداً .

انتظر طويلاً أن تأتيه زهرةٌ، زهرةٌ واحدةٌ عاشقةٌ، ولكنّ ذلك لم يحدث، وأوشك هزيع الصّيف على الانتهاء، وكاد موسم الزّهور ينقضي ، والفصل الدّراسيّ الجديد كان على الأبواب، دسّ صاحب متجر الزّهور في جيبه مظروفاً فيه أُجرة الشّهر الأخير الذّي عمل به،وأخبره برغبته في أن يعود للعمل عنده في العــطلة الصّيفيّة القادمة،

هزّ الفتى رأسه شاكراً، وابتعد ويده في جيبه تقبض بحذرٍ واهتمامٍ على الظرف الذّي فيه أجرة الشّهر.

في الطّريق توقّف أكثر من مرّةٍ أمام أكثر من محلٍّ زهور، كان يقاوم رغبةً جارفةً ألحّت عليه طوال الصّيف.

في المساء كان جالساً في بيته في وسط غابةٍ من طاقات الزّهور التّي حملها العشرات من فتيان الزّهور الذين جاؤوا من أنحاء متعدّدة يحملون له باقات زّهور، ليس عليها بطاقات تعريفيّة، كان يبتسم بقوّةٍ وبدهشةٍ غريبةٍ كلّما استلم باقةً جديدةً، هو حقيقةً في انتظارها،وإن كان يبذل جهداً لتمثيل دور المتفاجىء بطاقة الزهور التي من المفترض إنّها جاءت على حين غِرّة،ثمّ يدسّ إكراميّةً سخيّةً في جيب فتى الزّهور الذّي يغادر المكان مبتهجاً فرحاً، كان يشعر بسعادةٍ غامرةٍ، وإن عكّرها صوت بكاء أمّه التّي عرفت أنّ ابنها قد اشترى براتبه كلّه زهوراً حمراء ، بدل أن يدفع قسط دراسته الجامعيّة.

(٦)
الثّورة

كانوا أصدقاء جمعتهم الحياة بضنكها وقسوتها، وربطت الصّداقة بين قلوبهم الطّيبة، وألّف الحرمان بين وشائجها، فكانوا راحةً لبعضهم في أرض الضّياع والاستحواذ والافتقاد، يتقاسمون فاتورة الغداء أو العشاء، يحملون قصصهم وتجاربهم ومواقفهم اليوميّة إلى حضرة الطّعام، يبثّون لواعج أنفسهم، ويشكون حوادث أيّامهم، يخلعون أحزانهم، يسمح كلٌّ منهم للآخر بأن يمدّ يداً حانيةً تمسّد على عري تعبه وحاجاته، لتهبها لحظة حنان، وإيماءة دعمٍ وتعاطف، يختمون لقاءَهم اليوميَّ بشرب عصير الجزر، ليس لأنّه الألذ، ولكن لأنّه الأرخص، ويتوافق مع ميزانيّاتهم التّي تعاني من العجز الدّائم، ثمّ يفترقون وقد غسل اللّقاء شكوى قلوبهم.

كانوا أصدقاءً يتوزّعون على مدرج العمر من أوّل الشّباب حتّى آخره، كما كانوا يتوزّعون على عروقٍ شتّى، ومنابت مختلفة، وظروفٍ متباينة، لكنّ الطّموح والحلم جمعهم، ووحّد حالهم.

ثمّ ظهرت هي، كانت بمثل ظروفهم، وتفوقُهم طموحاً ورغبةً وحبّاً للحياة، كانت قادرةً على استيعابهم جميعاً، قادرةً على رسم مشاعرها بالألوان، قادرةً على تحريض مشاعرهم، وطموحاتهم، أيقظت فيهم جميعاً شيئاً اسمه الحياة والرّغبة، كلٌّ منهم أحبّها لسببٍ ما، ولكنّهم اجتمعوا جميعاً على حبّها، كلٌّ منهم كان لديه مخطّطٌ مشرقٌ هي من أركانه، وأوّل أمنياته.

ولكنّها لم تحبّ أحداً منهم، مع أنّها أحبّتهم جميعاً، أحبّتهم أرواحاً فأحبّوها جسداً، أحبّتهم أصدقاء فأحبّوها امرأةً، أرادتهم داعمين، فأرادوها حبيبة.

وافترقت الطّرق، وتقاطعت الرّغبات، ورحلوا عنها، بل رحلت عنهم، ولم تعد حبيبتهم، ولم يعودوا أصدقاءها، للدّقة لم يعودوا أصدقاءً أبداً، كلٌّ منهم اتّخذ له رهطاً آخرين، ولكنّهم جميعاً ظلّوا يحنّون إلى الماضي الذّي يلمسون فيه حناناً يشفقون على ضياعه، وصفاءً غاب في كدر الحياة.

والتقوا جميعاً إلاّ هي، كان لقاء صدفةٍ، أو لعلّه لم يكن كذلك، ولكنّهم التقوا جميعاً، تحدّثوا بتحفّظٍ ابتداءً، ثمّ بعتابٍ، ثمّ بتصافٍ، كلٌّ منهم تحدّث عن ألمه من الصّدّ، وعن آماله التّي تهدّمت على أعتاب حوّاء التّي أدارت ظهر المجن للكلّ، أحدهم اتّهم الصّديقة بالخيانة، الكلّ وافقه دون مناقشة تفاصيل تلك الخيانة.

واتّفق الجميع على تأسيس جمعيّةٍ لمناهضة هي، كما قرّروا أن

يعلنوا عن ثورةٍ مقدّسةٍ ضدّ (هي) وقرّر زعيمهم الرّوحيّ وهو أكثر من أظهر توجّداً على (هي) أن تكون الرّصاصة الأولى من فمه هو أمام بيتها .

اجتمع الأصدقاء حول منزلها، وأعلنوا عن ثورةٍ مقدّسةٍ لمناهضتها، بدأوا يهتفون منددّين بها، داعين بسقوط قلبها، لم تكن موجودةً لتحضر بداية ثورتهم؛ لأنّها كانت في عملها الذّي يستنزف شبابها لتطعم أخوتها الأيتام، عادت متدثّرةً بمعطفها القديم، تحمل كيس فاكهة في يدٍ، وفي يدٍ أخرى حقيبة يدها، وتدسّ تحت إبطها لوحةً رسمتها، وتبحث لها عن مشترٍ ما.

أدهشها اجتماع الأصدقاء حول بيتها، وعرفت من الجيران أنّ الأصدقاء قد أعلنوا عن ثورة ضدّ طاغيةً ما، أعجبتها الفكرة، وانطلاقاً من إيمانها بأصدقائها وبعدالة قضيّتهم، تركت ما تحمل جانباً، وأخذت تهتف عالياً مطالبةً بإسقاط الطّاغية التّي يطالب الأصدقاء بإسقاطها، مع أنّها كانت تعرف تماماً أين ينتهي الثّوار بعد كلِّ نداء إسقاط لقوى الظّلم وأعلام الاستبداد، كان هتافها عالياً، وتنديدها صادقاً، خجل الأصدقاء من أنفسهم، وأخذوا يهتفون بفتورٍ، وكلّ منهم يطالع وجه الآخر بحيرةٍ وخجل. هي خطبت مطوّلاً في جمهور الأصدقاء الذّي انضمّ إليه الكثير من المارّة والجيران، وحرّضت بخطابٍ ساخنٍ رسمته بالكلمات وبألوان كابيةٍ على الثّورة وعلى الرّفض، ونادت بإســـــقاط قوى الظّلم والاســـتبداد، تحمّـــس

الأصدقاء، ونسوا تماماً جمعيّة مناهضة هي، ونادوا بصدقٍ بسقوط الفقر والظّلم والحرمان، جابت الثّورة كلّ البلاد، وهتف الكلّ باسم الثّورة، في المساء كانت هي والأصدقاء حيث يكون كلُّ الثّائرين، كانت مؤمنةً بعدالة قضيّتها على الرّغم من وقع السّياط المؤلم، أمّا هم فكانوا يلعنون (هي) التّي أوصلتهم إلى هذا المكان، وفي هدأة اللّيل وضعوا البنود الرّئيسيّة لجمعيّة مناهضة (هي)، كما قسّموا حقائب الجمعيّة، وسمّوا الأعضاء الدّائمين فيها.

أكاذيب البحر

"الويل لمن يصدّق البحر "

(١)
أُكذوبة الجَزر

يتجشّأ البحر وهو ينسحب في الجزر، فيبتلع نفسه، وتعلوه رائحة الأسماك، فتبرز سارية السفينة الغارقة منذ مئات السنين قُبالة قريته الصغيرة، ومن بين أرض الشاطىء الرطبة المنكشفة التي عرّاها البحر تبرز هي، تأتيه راكضة بسرعة موجة، وبأسرار غيمة، تكتسي بأردية من زُرقة البحر، تلك الأردية التي اشتهاها لسنوات ثلاث، يرهف مشاعره وعينه متأمّلاً ورودها الذي يؤنس رجولته.

يفتح ذراعيه ،ويصدّر صدره العاري لاستقبالها، ترتمي بكلّ زرقتها بين يديه، تتمنّى أن تجد متسعاً من الوقت لتقول له كم تعشقه، يتمنّى لو يجد جرأة في نفسه ليقول لها كم انتظرها، لكن لا وقتاً ولا جــرأة يتوفران ليقولا ما يحــلمــان به. يطوّقها بيديــه العــاجيتين

بكلّ ما أُوتي به من قوة وشوق وحرمان، تقول له ضاحكة كعادتها: "ضمني بقوة، ضمني بقوة أكبر يا رجل الجزيرة الناسك". يقول لها بصوته الرخيم الذي يستوطنه إيمان ناسك، وتعلوه رهبة المساجد ونسيم المآذن: "أهلنون وسهلنون حبيبتي."

تهمس في أذنه اليمنى بضحكة مائية صاخبة:" أحبكَ". فيردّ عليها محاكياً نبرة صوتها: "أحبّكِ حدّ الموت". تقول له وهي تراقب جزر البحر في عينيه:" إذن هذا هو البحر؟ بحرك."

– " ألم تري البحر من قبل ؟ "

– " هذه هي المرة الأولى التي أرى بحرك فيها ".

– " ولكنّك تأتين في كلّ جزر! " يقول بحيرة وقلق.

– " قلتُ لك إنّ هذه هي المرة الأولى التي آتي فيها إلى هذا المكان ".ردّت بنزق وعصبية لا تحاول أن تخفيهما.

– "البحر مليء بالحكايا، ستحبيّن حكاياه ".

– " البحر مليء بالأكاذيب، ستحبّ أكاذيبه ".

– "البحر يزخر بحكايا من انتحروا لأجله " قال وهو يحدّق في سارية السفينة الغارقة قُبالة الساحل.

– "البحر يزخر بحكايا من قتلهم" قالت وهي تحدّق في صفحة وجهه الغارق في نور الشمس المنعكسة عن وجه البحر.

استدار بطفولية قرّر منذ زمنٍ أن يحاربها، وقال: " إنّي أحبّ البحر إلى حدّ أنّي ضحّيت لأجله بالعمامة السوداء ".

– " ما هي العمامة السوداء ؟ " قالت وهي تنزلق إلى جانبه، وتسند ظهرها إلى الصخرة التي يسند ظهره إليها.

– " تعني إمامة الطائفة من بعد والدي أطال الله في عمره ".

– " وهل من يلبسون العمامات السوداء يُحرمون من البحر؟! ".

– " يُحرمون من أشياء كثيرة ". قال وأصابع يديه تتحرّش بلا وجلٍ هو من طبعه بخصلات شعرها العسلي الطويل.

– " أنا أحبّ البحر ؛لأنّك تحبّه، لأنّك تشبهه، لقد كتبتُ عنه ألف قصيدة، وحفظت كلّ أساطيره".

– " وماذا كتبتِ يا ألذ حوّاء على وجه الكرة الأرضية ؟".

– " كتبتُ كلّ أكاذيب البحر ".

قال بتعجّب الأطفال الذين تشبه قسماته قسماتهم، ويداني طُهره طُهرهم : " كلّها ؟! ".

– " كلّها " قالت وهي ترتعد برداً من رطوبة الأرض اللزجة والصخرة البارز الأول من الأرض عند كلّ جزر، إذ تتعرّى بلا خجل بعد أن ينحسر البحر بترنّج سكّير عجوز. التصقت بناسك البحر، وتكورت بجانبه تبغي دفء جسده، كان عارياً إلاّ من إزار الصيادين المحليين.

– " ماذا عني؟ " سأل بابتسامة هادئة.

– " أنت أكذوبة البحر الكبرى ".

– " أيّ بحر ؟! ".

- " بحر قلبي ".
- " إذن أنا أكذوبة ؟! ".
- " دعنا من الأكاذيب.عندي لك مفاجأة ".
- " وما هي هذه المفاجأة ؟ "
- " خمّن ... ".
- " انتهت توقعاتي، فأنتِ بحرٌ أعجز عن السباحة فيه ".
- " أنظر ماذا وجدت على الشاطىء ".

تفتح كفيّ يديها، فيلقي نظرة فضولية عذبة على ذلك العشب البحري الأخضر الذي تحمله، يفركه بقوة يمنه ويسره، يتوهّج العشب الأخضر بوهج ذهبي، ثم يفتر الوهج، ويختفي تماماً، تفركه من جديد محاولة تهيج لمعانه، لكن دون فائدة، يقول لها بنبرة من يكلّم طفلاً صغيراً:" يا حبّي هذه الأعشاب البحرية تتوهّج مرة واحدة فقط ".

- " وماذا بعد هذه المرة الواحدة ؟ ".
- " لا تعود للتوهّج ".
- " لماذا ؟ ".
- " لأنّ هذا قدرها ".
- " أقدرها أن لا تتوهّج إلا مرةً واحدة ؟!".
- " هكذا هي الأشياء الجميلة تأتي مرة واحدة فقط ".
- " إذن عشقي لك مثل هذا العشب البحري الأخضر ".

يقهقه بضحكات تشبه تكسّر أمواج على صخور صلده، يتنهّد

قائلاً: " يا لك من امرأة طفلة !! لو كنتُ عرفتكِ منذ زمن لما نال الشيب مني ".

– " وماذا عن الآن ؟".

– " الآن ؟! أنا أدمنتك يا سيدتي، إدمان الشمس على الشروق، إدمان النحل على رحيق الأزهار، إدمان البحر على الشواطىء، إدمان البلابل على التغريد ".

– " أيعني هذا الكلام أنّك تحبّني؟ ".

– " أنا لم أقل إنّي أحبّكِ".

– " ولكنكَ قلتَ ذلك قبل قليل ".

– " متى ؟ ".

– " في لحظة الجزر ".

– " هذه أكذوبة الجزر، إيّاك أن تصدقي أكاذيب الجزر ".

– " ولكنني أعشقكَ ".

– " الويل لقلب عشق أكذوبة الجزر ".

– " ولكنني أعشقكَ ".

– " هيا لنغادر المكان، فبعد قليل سيمتدّ البحر من جديد، ليغمر المكان بمائه ".

–"أتخشى البحر وأنتَ صيّاد؟!"

–"أنا لست صيّاد بل صانع كلمات،أفنيت العمر في دراسة الكلمات،ولا شيء غير الكلمات".

-"ولكنّك قلت لي إنّك صانع كلمات!!"

-"متى كان ذلك؟!"

-"في ساعة أُكذوبة الجزر."

-"كلّ ما يُقال في زمن الجزر هو كذب."

-"ولكنني أعشقكَ."

-"وأنا أعشقكِ ،أقسم على ذلك."

(٢)
" أُكذوبة اللؤلؤ "

عرفها منذ سنوات، قابلها في لحظة من لحظات نوم القدر، أعجب بها بشدة، ورغب بقوة في أن يقول لها: " اشتهيك بشدة، اشتهي أن أسمع صهيلك يضجّ في أذني، أشتهي أن ابتلع تنهداتك بقبلي،أشتهي أن... " سحرته زرقة عينيها اللتين تشبهان زرقة عيون عرائس البحر اللواتي أعيينه بحثاً عنهن في بحر قريته، وإن كنّ موجوات بكثرة في ليالي ألف ليلة وليلة، التي قرأها سراً عشرات المرّات. وعجب بشدة أنّى لهذه الحورية أن تعيش في الصحراء بعيداً عن الماء ؟! تماماً كما عجبت هي أنّى لبلاده التي تحرق شمسها الأشواق والأكباد أن تلد شيبه الفضي الساحر،وأن تهبه بكل ّ هذا السخاء لشبابه الفاتن، ولرجولته الطاغية والمتفلّتة بصعوبة من وقاره وصمته.

كادت تحدّثه، ولكنّها خشيتْ من وقاره، كاد يحدثها لكن كِبْره منعه، فهو سليل العمائم السوداء، والوجوه البيضاء المتّشحة بالحمرة

المتمرّدة على السمرة، وحامل سِفْر الحرمان الأعظم، لا يضحك، لا يعشق، لا يبكي، لا يحبّ، لا يشتهي، لا يصرخ، لا يحتجّ على الحرمان؛ لأنّ ذلك كلّه محرمٌ عليه؛ لأنّه يحمل لقب سيد، والأسياد في عرفه كالجياد العربية تموت عطشى في المضمار، ويمنعها كِبْرها من أن تشرب، والماء قيد أنملة من الاستسلام لقدرها المشؤوم.

لكنّه يشتهيها، يريد أن يذيقها ثمار رجولته دون نساء الدنيا، والسفر قريب لا يحتمل التأجيل،يريد أن يسمعها شعر العشق الذي اضنى طفولته وهو يحفظه، وفي النفس حاجات لم تقضَ. في لحظة شجاعة قلّ أن يعرف قلبه الذي يزجّ برجولته وشهواته خلف بابٍ من الصمت مثلها اقترب منها وحشرجة ما تعشعش في حلقومه، تهاجم صمته، وتتمرّد عليه، انقضّ على لامبالاتها قائلاً دون أيّ مقدمات :" يا حورية بحري، أترحلين معي ؟ أنا أحبّك ".

– " ولكنّني أخاف البحر " ردّت كأنّها قد هيّأت الإجابة منذ ألف سنة.

ابتسم وقال :" إذن تزوجيني الآن، تزوجيني زواج بحر ".

–" وكيف يكون زواج البحر ؟"

– " يكون عنيفاً غريباً قاتلاً وسرعان ما يرحل يا خاتون ".

– " ليس اسمي خاتون، هل نسيت اسمي ؟! أنا اسمي ... ".

– " بل أنت خاتون، خاتوني ".

– " كيف ذلك ؟ ".

– " كان والد جدّي لأبي صاحب أشهرعمامة سوداء في سلالة من العمائم السوداء التي يرجع نسبها إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، أمّا والد جدتي لأبي فكان أشهر تاجر لؤلؤ في جزيرتي بل وفي الخليج كلّه، وسيراً على سياسة تزاوج المال والنفوذ، تزّوج جدي وجدتي، وعاشا أجمل حياة، كان أبي البذرة الوحيدة لهذا الحبّ الذي دام عشرين سنة، وماتت جدتي، كان اسمها خاتون، منذ موتها ما انفك جدي يرى نساء الأرض جدتي، ويلحق اسم خاتون باسم كلّ واحدة منهن، كأنّه يأبى أن يلفظ اسم أيّ امرأة في الدنيا دون أن يقترن باسم المرأة الوحيدة التي أحبّ ".

– " وبذا كانت خاتون أسطورة العشق الحقيقية التي عرفتَ ؟ ".

– " نعم يا خاتون، وأنتِ أسطورة عشقي التي أريد أن أعيش.هيا تزوجيني وكوني أسطورتي ".

– " ولكن ماذا سيبقى لي بعد سفرك ؟ ".

– " سيبقى لك البحر وحبي ".

– " ولكنني أعيش في الصحراء ".

– " ولهذا سأهبك البحر ".

– " لا أريد البحر، أريدك أنت ".

– " سأهبك ألف لؤلؤة ".

– " لا أريد اللؤلؤ، بل أريدك أنتَ ".

– " هل تتزوجينني الآن ؟ ".

- " زواج بحر ؟ ".
- " نعم، حيث لا شهود ولا عقد، ليس هناك إلاّ البحر ".
- " ولكن ؟! ".
- " تزوجيني ... تزوجيني .. ".

وتزوجا، لساعات، لأيام فقط كانا زوجين، تسكعا في أرجاء مدينة القحط، مارسا العشق في كلّ أرجائها،اختزلا في ساعات حبهما كلّ مراحل وقصص الحبّ ؛ إذ إنّ الفراق يقف منتظراً على الباب، وتذاكر السفر تقبع في جيب قميصه البحري. وجفّ البحر في فراش عشقهما؛ إذ كان عشقاً حاراً كافياً ليذيب الجليد، وليحرق الماء .

وسافر سليل الأساطير والعمامات السوداء، ولم يعدْ بعد أن كتب على عجلٍ على بوابة صحرائها :" كانت مدينة القحط طيلة سنوات ثلاث مدينة لا تُطاق، كنتُ أتمنى الخلاص منها، وتركها في أسرع وقت، لكن عينيكِ صيرّتا القفر واحة يهوي القلب إليها، ليستريح فيها من عناء الدنيا، فإليكِ يا من صيّرت الموت حياة أهدي حُبي ".

ولما طال الانتظار ولم يعد في موسم المطر كما وعد ،كتبتْ تحت كلماته بتريث قاتل :" أنتَ لن تعود، أنتَ أُكذوبة اللؤلؤ، وشقيّ هو من يصدّق الأكاذيب .. أحبّك ".

(٣)
" أُكذوبة النوارس "

" حرام أن تعشق، حرام أن تشتهي" هذا هو الدّرس الأوّل في أرض الحّر والرطوبة والماء، وهذا هو الدّرس الأوّل الذي لقّنه لصبية الطائفة عندما كان معلّماً طفلاً يلقّن الأجرمية للصبية، ويشرحها لهم بما تيسر له من علم وحفظ، وهذا ما رآه مسطوراً في كتب أبيه التي كان القيم الأمين عليها.

ولكنّه على الرغم من كلّ ذلك يعشق، ورغماً عنه يشتهي امرأة أرض القحط التي بعث لها يوماً خطاباً سرياً مع نوارس البحر التي تعشق صمته وتواطئه مع أشواقها وحنينها،قال فيه " يا عمري، لقد حدّثت الأصدقاء طويلاً عن سحر عينيك ورقتك وأنوثتك، كانوا يستمعون وهم بين مكذب للخبر، ومستغرب من جرأتي، وآخر يتمنّى لو يتاح له ما اتيح لي ... أحبّك ".

فحملت الأمواج له شهقة خجلها وهي تقول:" هل حدّثتهم بكلّ شيء؟" .فبعث لها برسالة حملتها الأمواج بارتياح قال فيها:

"أنا ياعمري لا أبوح لهم بكلّ شيء غيرة عليك ،إنّما أحدّثهم بالكليات ،وعليهم أن يستنتجوا الجزئيات."

فردّت عليه بكلمة واحدة حفظتها نوارس البحر، وهمست بها إلى العاشق، وبقيت تكرّر الكلمة حتى ضجّ البحر بها، وتبرّم منها بشدة، فهو لا يحبّ أن يسمع كلمة " أحبك " التي تعلن التمرّد على صمته، وعلى جبروته.

وحكم البحر على النوارس بالحزن طوال عمرها، وفرض عليها الإقامة الجبرية على الشواطىء، وقطع السبل بين العاشقين؛ لأنّه على الرغم من قوته جبانٌ يخشى الحروب، ويهوى الصمت، وإن كان أحياناً يحاول أن يكفّر عن ذنبه بغسل شاهد قبر امرأة قيل إنّ اسمها خاتون، وأنّها لم تسطع أن تصمد على فراق رجلٍ يحترف الفراق والوداع، فماتت بعد أن كتبتْ على شاهد قبرها :

"هجرتكِ حتى قيل لا يعرف الهوى
وزرتكِ حتى قيل ليس له صبرُ
فيا حبّها زدني جوىً كلّ ليلةٍ
ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ"

ولكن البحر عاد لسخطه من جديد؛ لأنّه سمع من مصدر غير موثوق فيه أنّ القبر ليس إلاّ أكذوبة من أكاذيب النوارس التي اخترعتها لتديم نطق كلمة " أحبــك " التي فُتنت بموســيقى حروفها،

وأدمنت تكرارها حتى وهي تنهش جسد امرأة قيل إنّ اسمها خاتون، كانت عارية تماماً إلاّ من خاتم زواج بحري مجهولٌ صاحبه كان في أصبع يدها ،بعد أن ألقت بنفسها في البحر في أرض القحط حيث لا بحر !!!

(٤)
أُكذوبة الأمواج

اعتاد منذ صغره أن يثق بالبحر وبأمواجه مع أنّه يعلم كم من الصيادين والعاشقين والمستضعفين قد ابتلع البحر دون رحمة، لكنّه يقدّر سلوك البحر لمسوّغ لا يستطيع أن يصوغه بالكلمات، لكنّه يدركه بالإحساس، ولو وضعت خاتون يديها على قلبه ،إذن لأدركتْ معناه تماماً، فهي دون بشر الدنيا من تفكّ طلاسم صمته وحيرته، وهي من تفجّر فصاحة فحولته، وهي من يستطيع أن يبكي بين يديها دون خجل.

كما أنّ أمواج البحر قد كانت خير صديق مخلص له، فقد حفظت أسراره سنوات طويلة تعادل سنين عمره، دون أن تبوح بسرّ واحدٍ منها، لذا فقد باح لها بسرّ حبّه لخاتون، وأودعها كلّ خطاباته التي كان يبعث بها إليها، فحفظتها في بلورة من بلورات زبدها، وتركتها تتهادى على تعرّجاتها.

البارحة كتبَ لخاتون خطاباً أصفر، قال فيه :" الحرّ والرطوبة هنا لا

يحتملان، ولكنّهما يهونان إذا ما قستهما بفراقك الذي ينغّص حياتي عليّ ".فحملتْ له أمواج البحر خطاباً منها كُتب فيه " أحبّك ".

من جديد أرسل خطاباً أحمر كُتب فيه " أنا مشتاق إليك، أشتهي أن أضمك ضمة تختفي فيها أضلاعنا في بعضها، أريد أن ألقاكِ بقبلة تذوب شفاهنا فيها حباً وغراماً، وأريد .."فأرسلت له خاتماً مصنوعاً من زبد البحر، وقالت له:" البس هذا الخاتم، ولا تخلعه أبداً،سأعرف أنّك تحبّني ما دمت تلبسه".

على عجل لبس خاتم الزبد بمساعدة أمواج البحر،كان على مقاسه تماماً ،فأرسل لها خطاباً أخضرَ يضجّ بعشقه قال فيه:"أنا لن أخلعه أبداً ما بقيت على قيد الحياة؛لأنّ هناك أناسٌ ينحتون في أعماقنا مشاعر رائعة لا تنسى"فحملت أمواج البحر له خطاباً منها كُتب فيه:" هناك رجل سيندسّ في القريب في فراشي اسمه زوج، لا أريد أن أكون قاسية عليك، فأجشّمك فوق طاقتك، ولكن ما تراك فاعلٌ ؟! أحبك ".

فبعث لها خطاباً أحمر حملته الأمواج على مضض واستحياء كُتب فيه :" ومتى كنتِ قاسية ؟! أنا أراكِ أرقّ من النسيم، وأجمل من كلّ جميل ".

فبعثت له صور زفافها، وصفحة من خبر نعيها في الجرائد، وعنوان المقبرةِ التي دُفنت فيها، وكلمة " أحبك ".حزن بشدّة، وبكاها

كما لم يبكِ حباً لا سيما أنّ قلبه لم يعرف العشق من قبل، ثم رجا أمواج البحر أن تحفر على شاهد قبرها عبارة :" لم أذقْ السعادة إلاّ بين يديك .أحبّك ".

حملت الأمواج رجاءه وهي تشعر بغيظ غريب، وسرعان ما لفظته مع ذلك القيء المفاجيء الذي داهمها، وابتلعت في سورة غضبها عشرات من سفن الصيادين؛ إذ إنّها غضبت لأنّها أكذوبة، وما خُلقت أبداً لتكون أكذوبة، بل لتكون قدراً على شكل ماءٍ، وكذلك كانت...

(٥)
أُكذوبة المدّ والمرجان

كم هي حبيبته امرأة جاهلة !! حتى أنّها تجهل البحر وعالمه، ولا تفرّق بين اللؤلؤ الحقيقي أو المزيّف، وعندما أخبرها آسفاً بعجزه عن شراء عقد اللؤلؤ الذي تطلبه، لأنّه باهظ الثمن، تبسّمتْ وفي عينيها هدوء غريب عن طبعها، وقالت له بدفء نبرة الأمهات :" إذن احضر لي عقداً من اللؤلؤ المزيف، وسأبدي به سعادة لا تقلّ عن سعادتي باللؤلؤ الحقيقي ".

– " ولكنّه لؤلؤ مزيف، فكيف آتيك به ؟! علي أن آتيك باللؤلؤ الحقيقي ".

– " هذا أفضل من أن تأتي دون تحقيق أمنيتي ،ثم ماالفرق بين اللؤلؤ المزيف والحقيقي؟ بالمناسبة لماذا لا تحضر لي عقداً من المرجان؟ أهو رخيص الثمن ؟".

– " هو رخيص للغاية ".

– " إذن أريد عقداً من المرجان ".

ومن جديد استغرقت في ضحكها الذي يعشقه، واختالت فخراً بجيدها الذي لم يطوّقه عقد اللؤلؤ،ولكن طوّقته فقط قبلاته السخينة.

لا يستطيع أن يهرب من ضحكاتها حتى بعد أن هجرها؛ لأنّه أحبّها كما لم يحبّ يوماً بشراً، لكن زوجة ضعيفة، وأبناء أربعة، وإرثاً من العقائد والمحرمات والظروف والموانع فرّقت بينهما، للدّقة سمح لها أن تفّرق بينهما، فهجرها، وإن لم تهجرها نفسه. رجته الإباب، فلم يستجيب لرجائها، سبّته فلم يرد سبتها، اتهمته بأفظع التهم فما نالت من صبره، ومن عزم قراره. وعندما يئست غابت كأنذها لم تكن، ولكنّها لم تغب يوماً عن قلبه وعن وجدانه.

ومرت السنون، وتذكرته، وقد خال أنّها نسيته، إلى أن جاء طرد منها، كان الطرد صندوقاً أحمرَ كبيراً، مكتوب عليه بخط يدها الذي ما زال عدم الوضوح والارتجاج يميزانه. وفي الصندوق كان هناك ألف رسالة كتبتها عبر سنين من الحرمان والقطيعة، قالت إنّها كتبتها كي لا تصاب بالجنون.

إلى صخرته المعتادة أسند ظهره المعنّى بثقل عشق ألف رسالة، كان الجزر قد انسحب بمقدار عظيم من البحر، كانت الأرض رطبة باردة شأنها في ذلك شأن شتاء البحر القارص، لكنّه ما بالى بذلك، دسّ سماعتي جهاز التسجيل في أذنيه، وأرهف السمع لموسيقى المونامور (monmour) التي يحبها بشدّة.

كان ديوان شعرها الأوّل هو أبرز ما طالعه في الصندوق الاحمر، قلّبه على غير عجل، ثم قرأ قصائده، إذ رأى نفسه يتربّع في كلّ الكلمات، وإن كان يبرز باختيال وبألوان برّاقة في خاتمة ديوانها إذ كتبت بنوح نسائي مكابر :" قال إنّه سيكتب لي كلمات مائية، تسبح فيها أسماك أسطورية ملوّنة، وتغرق فيها مدن من الأحلام والأوهام، وترسو فيها سفينة العمر، قال لي إنّه سيكتب لي كلمات بخيوط الشمس، وبجموح السراب، قال لي إنّه سيهديني كلمة الحب العظمى، وصدّقته، ثم غاب، وما غاب انتظاري له، ولا غاب انتظاري لكلماته المشتهاة، وما أكثرها من كلماتٍ كانت!! ليته عاد،وغابتْ الدنيا".

كلمات خاتمتها ذكّرته بوعدٍ كان قد قطعه للشاعرة في زمن الحبّ الغابر، كان قد وعدها بأن يكتب خاتمة لديوانها،ولكنّه أخلف وعده الصغير وفق عادته معها.شعر بخجل ؛لأنّه أخلف وعده للمرأة التي عشقته.

صمت زمناً وموسيقى مسجلّه تحفر أحزاناً في روحه، تذكّر وإن لم يكن ناسياً كم كانت تلك الشاعرة العاشقة تعشق هذه الموسيقى التي أحلّ لنفسه أن يسمعها في حين حرّم عليها أيّ أغانٍ أو موسيقى أخرى، ولاح في أذنيه صوتها وهي تضحك من رجل لم يسمع في حياته قط صوت أم كلثوم أو فيروز أو عبد الحليم حافظ، وشرع يقرأ رسائلها الألف، الواحدة تلو الأخرى، كانت سِفْراً من الحبّ أو الحقد

أو الغضب أو مزيجاً من كلّ ذلك.

استغرق ساعات طويلة في قراءة الرسائل، عندما انتهى كانت نفسه مشروخة حدّ الاتساع لابتلاع ماء البحر الذي عاد من الجزر مداً، وغمر جسده حتى الركبتين، مزّق الرسائل، فغدت حمائم بيضاء تتهادى على صفحة البحر الساكن على غير عادة،طالع خاتم الزبد الذي يلبسه منذ أن عشقها ولم يخلعه أبداً، ثم أخذ نفساً عميقاً، وانسرب سمكة في الأعماق ليجلب لحبيبته الشاعرة لؤلؤاً ومرجاناً ،فحبيبته جاهلة بالبحر، لكنّها حَبْر العشق الأكبر.

(٦)
أُكذوبة الأصداف

كلّ صدفة تحمل أكذوبة، ومن يجيد تخير الأصداف،ويحسن إرهاف السمع لها، يستطيع أن يسلّي نفسه بأكاذيب البحر.ولكن الويل لمن يصدّق أكاذيب الأصداف.

أكذوبة صدفة (١١) : الجزر يخاف من البحر.

أكذوبة صدفة (٥) : لا أحد يتزوج بعُرف البحر.

أكذوبة صدفة (٦٩) : النوارس تكره كلمة " أحبّك ".

أكذوبة صدفة (٢١) : خاتون لم تبعث ألف رسالة عشق.

أكذوبة صدفة (٥) : اللؤلؤ يعشق الأحزان.

أكذوبة صدفة (٧٧) : الأصداف ليس لها أكاذيب،البشر فقط من لهم أكاذيب،هذا ماورد ذكره في ألف رسالة عشق أرسلتها امرأة يائسة.

الكابوس

(١)
كابوسه

ثوانٍ فقط بعد أن يغمض عينيه ويتدّثر بدثارٍسميك تمضي ، ثم ينسرب في دوامةٍ سوداء تبتلعه بسكون لذيذ ، اسمها النوم ، ما عرف يوماً قلقاً أو أرقاً ، فهو كما يحلو له أن يصف نفسه بتبجّح يملك النوم في قبضة يده ، لحظة ، ثم يصبح أسيره دون مشاكل أو انتظار ، وإن كان يلقي صعوبة دائمة في أن يستيقظ ، فهو من عشّاق النوم ،ومن الذين يملكون فلسفة بشأنه ،تتلخّص بالاستسلام له ، وملازمته طويلاً، والتبتل في محراب سحره ، وإن كان لم يعرف يوماً متعة أو نشوة حلم ، فقد كان سلطاناً للنوم لا للأحلام، تمنّى كثيراً أن يحصل على حلم ، حلم واحد فقــط ، كلّ من حوله يعتاشــون على عذب

أحلامهم ،بعض أصدقائه كان الحلم هو محقق نشوتهم ، ومفرغ رغباتهم المدفونة ، يفجرونها سخينة مشتهاة ، ويستيقظون بكامل الراحة والسعادة ، في حين كانت أمّه تصيّر حياتها وَفْقَ أحلامها ، أمّا جدّته فكان لها باع طويل في تفسير الأحلام ، فعه تشتاط كحبّة فشار في مقلاة إن لم توافِ الحقيقة تفسيراتها، وتقارب توقعاتها، أمّا هو فقلما عرف الحلم ، كان معلقاً في دوامة سوداء بين اليقظة واللايقظة ، وأمّا الأحلام فيجهل تماماً كنه حياكتها ، وطريقة صناعتها ، بالتحديد يجهل ما معنى حلم ، كيف يبدأ؟ كيف يتوحّش ؟ كيف يخبو؟هو لا يعرف.

كلّ تلك التساؤلات كانت حائرة مثله،معلقة معه في شرنقته السوداء التي تُسمى نوم ، أمّه تقول إنّ من لاهمّ عنده لا يحلم ، ولكنّه مهموم ، جدته تقول إنّ أصحاب القلوب الطاهرة والنوايا الطيبة ، والأفعال الخيّرة ، لا يحلمون ،وإنّهم يضعون جنوبهم وهم خلو البال من الدنيا؛ لذا لا ترافقهم إلى النوم ، ولكنّه آثم القلب ، فاحش الأفعال. إذن أين حلمه ؟ هو لايملك حلماً، حسبه ذلك الكابوس النهاري الذي يطارده ليل نهار ، يؤرّق جسده إلى ما لانهاية ، ويستنزف طاقة نومه وراحته ، ويُشكل الأمور عليه تماماً ، لعلّ هذا الكابوس هو السبب الحقيقي في هجر الأحلام له ، فكابوسه هو لعنة حياته ، لعنة الأصدقاء ، ولعنة نفسه الآثمة ، ولعنتها هي بالذات .

بدأت القصة مزاحاً ، ولا شيء غير المزاح والتندّر والبحث عن

تسلية ، وانتهت بكابوس أعياه علاجاً بالطبّ والسحر والقرآن ، فرحل كلّ شيء إلا إيّاه ، فقد بقي ثقيلاً جاثماً على صدره .

اعتاد أن يجلس في ذلك المقهى مع الأصدقاء الذين تعرّف عليهم في رحلة الدراسة ، ثم جمعت العربدة والسكر والفواحش بين ساعاتهم ، وقاربت لقاءاتهم ، وجعلتهم عصبة تتعاطى العهر والسّكر ، وإن كانت تُخلص للمزاح والتندّر ، وتواظب على اللقاء ،وعلى تجاذب أطراف الكلام ، وسرد سِير المغامرات .

لايعرف تماماً ما حدث يومها ، لعلّها كانت مزحة، لعلّها كانت حقيقة ، ربما تكون قوة خارقة استحوذت عليه ، وقد لايكون أيّ شيء مما ذكر ، ولكنّه متأكد من أنّ كلماته هي من جلبتها ،أوعلى الأقل هي من وضعتها في طريقه ، كان عندها يصف إحدى تلك الأجساد النسائية التي اعتاد أن يهصرها بشبقٍ شهواني ، كان رُبّ الوصف ، كلماته تنقل الزفرات والخلجات والتنهدات ، ثم تغمر الجسد بقوة عظمى ، سرعان ما تُسرّي عن نفسها بانتعاشة لذيذة ، كان جسداً ككلّ الأجساد النسائية،نسي وجه صاحبته المليحة ، ولكن حفظ مفاتنه وأغواره ، وأخذ ينقلها كلمات إلى ذهن الأصدقاء الذي لايضنّ عليهم بالوصف،بل ولا يمانع في إحالة نسائه إليهم في بعض الأوقات؛ فالمتعة حق عام ، والأجساد لها فتنتها الخاصة.

سريعاً ما تطوّر الحديث ، بدأ بالتخصيص ، ثم بالتعميم ، ثم انتهى بالتهكّم ، بلغته الساخرة ، وتصويره المتهكم في وصف المرأة

التي لم يذقها بعد ، والتي يرغب فيها على سبيل التغيير ، ومن باب التحدّي ، أرادها امرأة تخلو من كلّ جمال أُنثوي ، امرأة معنّاة بشكلها ، موتورة بإثارتها ، يريدها مسخاً ، لكن دون تشوهات ؛ ليثبت للأصدقاء أنّ رجولته المتهيّجة قادرة على استحضار ذاتها حتى مع أقبح نساء الدنيا ، الأصدقاء كانوا مستغرقين بالضحك ، يتندرون من هول ما يصف ،أمّا هو فكان يوسّط كلماته بحلقات رمادية ينفثها على مهل من أرجيلته ، ثم يسترسل بالوصف ، يريدها امرأة قبيحة، قبيحة جداً .فرغت كلماته ، وما فرغت أمنيته حتى وجدها أمامه تماماً، بالتحديد أمام واجهة المتجر المقابل ، ترقب بفضول آخر صرعات الموضة النسائية ، كانت صيداً لتحدّيه ، مناسبة تماماً لرهانه ، حفزّه الأصدقاء برهانهم ، نحّى خرطوم أرجيلته جانباً ، وانطلق إليها؛ ليحقق رهانه الفاحش .

ساعات أم ليال أم لحظات مرت ؟ لايهم ، المهم أنّ رجولته الطاغية وقسماته المثقلة بشهوتها قد أزاغت قلبها ، وذهبت به شططاً ، وحّررته من سجنه الإجباري ، تحركت فيها أنوثتها المسحوقة ، لم تكن تصدق أنّ أنوثتها الكسيرة قد تستوقف رجلاً مثله ، وكان اللقاء أو كان الفراق ، على يديه كانت أوّل تنهداتها ، التي لم يسمع مثلها ، مزيج من السحر والأزلية ، خليط من الرغبة والنشوة ، حالة خاصة من العشق والتمنّي ، توثّبت رجولته كما شاء لها ، وانتهى لقاء استمر ساعات خالها لحظات لجمالها،وكسب الرهان،واختفت غضبى

بعد أن عرفت عن رهانه الذي ما رحم قلبها ،وفضح سترها ،وجعلها عرضة للسخرية وللتندّر ، حقدت عليه بمقدار ما أحبّته،وقد أحبّته كثيراً،لذا فقد كرهته كثيراً أيضاً ، زهدت به بمقدار ما اشتهته، غابت وخسرت ، وكسب هو الرهان ، غابت وتركته يشعر بأغرب خسارة في لحظة الكسب ، غابت وتركته حبيس تأوهاتها . رآها في كلّ مكان، في كلّ ليلة نامت في عظامه وبين أضلعه ، ولكنّها ما ظهرت ، هو من خلقها ، هو من أوجدها ، هو متأكدٌ من أنّه من صنعها بكلماته ، كوّنها آية في البشاعة ،رحلت الأنوثة عن كلّ قسماتها ، لكنّها تدفّقت زلالاً في ذاتها وروحها، كسب رهانه ، ثم خسر رجولته للأبد، التي بقيت تنظرها ، ولكنّها لم تحضر .

أصبحت كابوسه اللعين ، يتخيّلها في كلّ مكان ، يلحظها أمام واجهات الحوانيت ، يهرول سريعاً إليها ، ثم تختفي ، بعد أن يكون قد راهن عليها بكلّ أشواقه ، وينام، ولا يحلم ، ويستيقظ ليجد أنّه مازال حبيس كابوس يسمى هي ...

(٢)
كابوسها

تعيش الأحلام ليل نهار ، في الليل ترى نفسها سعادة لاتعرف نهاية ، وفي النهار تتخيّل نفسها نائمة تعيش أحلام يقظة هانئة ، ترى جسدها يكتسي بأنوثة سعيدة تحوّله إلى لحظة سعيدة ، ترى نفسها وسط أسرة هانئة، ومع زوج محبّ ، تحمل حصاد العمر سعادة وهناءة ،هي ملكة الأحلام، وأَمَةُ الحقيقة.

يكفيها أن تقرّر السعادة ، حتى تنالها، تُسدل عينيها ، وتترك نفسها للتمنّي ، فتجد المستحيل حقيقة، والبعيد قريب،تنسى أنّها امرأة محبوسة خارج أنوثتها،لم تذق يوماً لحظة أنوثة على يديّ رجل خلا ذلك الكابوس الذي يسيطر عليها، غادرها اهتمام الرجال ، فغادرته ، وإن بقيت تحلم به ، أمّها الانسان الوحيد الذي أشفق على غبنها في أنوثتها ، تمسّد على رأسها ، وتنعى قلة حظّها ، فتفهم ضمناً أنّها تنعى قلة جمالها ، فتبتسم ، ثم تصمت .

كانت الطالبة الألمع في المدرســـة ثم في الجامعة ، فقد كانت

متميزة في تخصّصها ، مبدعة في حقلها ، تحظى باحترام الرجال دون حبّهم ، يسمونها أختهم، في حين يسمون غيرها حبيبة ، يبثونها أحزانهم، في حين يبثون الأخريات أشواقهم ، يتحرّون أوقات نشاطها ، يعملون معها ، ويتحرّون لحظات أنوثة غيرها ؛ليكونوا لهن.

اعتادت أن تحضن الفراغ في حين يحضن غيرها قلوب حانية عاشقة ،وأذرعاً طامحة، أزهقت العمر ، وبدّدت المدّخر؛ لتساهم في تدريس أخ ، أو لتشارك في بناء بيت لأخت ، أو لتجلب هدية في عيد ميلاد نسيب أو صديق ، ثم تلتصق بالحائط حيث الوحدة ،الكلّ يروي لها حلمه ، ولكن لا أحد يفكر في أن يسمع حلمها الذي سرعان ما مُسخ في ذاتها؛ ليصبح كابوساً مضنياً .

بدأ منذ ليلة رحيل والدتها ، التي رحلت بعد معركة غير متكافئة مع المرض تاركة بيتاً كبيراً، تقاسمه الأبناء حتى مداسات الأحذية القديمة ، وبنتاً عانساً لا أحد يُعنّي نفسه بحرمانها ووحدتها ،فضلاً عن أنّ أحداً لم يفكّر أين ستقيم بعد أن باعوا البيت الذي بنته بسنين شبابها الضائع، وفاتورةً ضخمةً ترهق ميزانية العانس التي تصدّت لها في حين أعلن الكلّ عن إفلاسه ، فاستنفدت كلّ مدخراتها البقية المتبقية بعد تسديد فواتير الحبّ والأخوة والصداقة ، التي غرمت كثيراً في سبيلها .

كان خبر موت أمّها خبراً مفجعاً ، جاء صباحاً قبل لحظة الشـــوق ، الأخوة كانوا في حضون نســـاءٍ لهن صور باسمة بأثواب

بيضاء منضّدة فوق طاولة غرفة المعيشة، والأخوات بكين في حضون رجال أنجبن لهن أبناء وبنات ، وكن قبل سويعات يشهقن في حضونهن غير مباليات باحتضار امرأة عجوز تُسمى أمهنّ، أمّا هي فقد انزوت جانباً ، كانت في حضن الحرمان ، أسعدها أن تجفّف أيدٍ حانية دموع الأخوة والأخوات،ولكن ماذا عنها ؟ ذهبت إلى أقرب حمام، وانتحبت طويلاً ، وتكفّلت بتجفيف دموعها .

حرمانها فجّر كابوساً رهيباً، كابوساً لايفرقها لا ليل ولا نهار ، كان مزيجاً من الرغبة والخوف ،تجاوز المتوقّع ، وكسر المقبول ، كان كابوسها فتىً أسمر فارع الطول،يصغرها كثيراً، يناسب فتى صباها، في كلّ سِنة كانت تراه ، كان جريئاً، له وجود ضبابي ،هي فقط من تراه دون الآخرين ، لا ينتظمه وقت أو قانون ، يمدّ إليها يديه المشتهيتين في أيّ لحظة ، وفي أيّ مكان ،يعريّها على عجلةٍ في لحظات، يفتضّها بعنف لذيذ ،يقبّلها قسراً مع أنّها مستسلمة له، يفوح المكان بأريج أنفاسه ، يبتعد منتشياً منتصراً ، تتنبّه بصعوبة إلى من حولها ، يغيب ليعود مجدداً ،كابوسٌ هو، رغبةٌ جارفة تجتاحها هو، كلّ شيء إلا الحقيقية هو، فهو أبداً ليس حقيقة. تتساءل بصعوبة أهو كابوس ؛لأنّه حقيقة؟ أم أنّه كابوس ؛لأنّه ليس حقيقة ؟ تعيها الإجابة ، تهزّ كتفيها غير بالية ، ومن جديد تسقبل اعتداءه اللذيذ .

(٣)
كابوسهما

هي كابوسه ، هو كابوسها ، هو لايحلم ، هي دائمة الحلم ، هي قبيحة ، هو جميل ،هي تنتظره ، هو يشتهيها ،هي عانس ، هو شاب وسيم ، هي مستلمة ،هو فاحش ، هي وحيدة، هو وحيد ،هو يراها في كلّ الأمكان ، هي تراه في كلّ مكان ،هي تسكن جسده ، هو يسكن لهاثها ، هي لاتعرف أين هو ، هو لا يعرف أين هي ، هي تعرف أنّه موجود ، هو يعرف أنّها موجودة ، كلاهما يدركان أنّهما في كابوس ، ليس عليهما إلا أن يتجاوزاه ، أو أن يتوقّفا لحظة؛ ليدركا الحقيقة فيه.

في كلّ صباح تقطع الشارع ،فتصدفه ، أحياناً يصدم كتفها كتفه وهي تفتح سيارتها القديمة ، تقف في المرآب إلى جانب سيارته الفارهة وهو يستعد لركوبها ، تعتذر أحياناً ، يبتسم لها أحياناً ، ويمضيان في دربين لا يلتقيان .

يجتمعان في الكثير من مناسك الدنيا ،في الأعراس ، في المآتم

،في حفلات الصيد ، في بعض مراسم العمل ، يحيي أحدهما الآخر ، ثم يقفل مبتعداً ،ليعيش كلّ منهما في كابوسه ، ولأجل كابوسه .

في إضراب عام لبائعي المحروقات ،يصدف أحدهما الآخر في حافلة واحدة ، يجلس أحدهما إلى جانب الآخر ، اكتفاهما متآخية ، وأجسادهما ملتصقة ، كلّ منهما يجري نحو كابوسه ، هي تحلم به ، هو يحلم بها ، ينتفضان ، يبتسمان لبعضهما ابتسامة خجل واعتذار، يقولان بنفس واحد :" أعتذر عن الإزعاج،لقد كان كابوساً..."

(٤)
كابوسهم

كابوسهم مخيف قلق ، يستنزف لحظاتهم ، ويقلق سكونهم ،يخشون من أن تحلم به ، من أن تراه في قلبها ، يخشون أن يجسر وينام في أمنياتها ، كابوسهم يتمثل في أحلامهما ،أحلامها وأحلامه، يريدانهما في كابوس دائم؛ لأّن أنتهاء كابوسهما يعني بدء كابوسهم ، يخشون الحبّ ، يعذبون من يجهر باسمه الملعون ، ينكّلون بأجساد من يتعاطه ، وفي آخر الليل بين الهدئة والسكون ، في غياهب غرفهم المظلمة و في عميق أنفسهم المضطربة، يبكون ويبكون ؛ لأنّ حلمهما كان حلمهم الذي غدا كابوسهم .

(٥)

كابوسي

ليس مصرحٌ لي بالتنديد بالكوابيس ، عصاةٌ ما همست لي في حمأتها :" لا..للكوابيس" . هتفتُ بحماس مرددّة بعدها:" لا للكوابيس ..."

ولكن كابوس عصاة تنهال علي ، فتدكّ عظامي ، وتسحق أمنياتي ظلّ يطاردوني ... مع أنّي عاهدت نفسي إرضاءً لعصا القبيلة على عدم الاستسلام للكوابيس .

(٦)

كابوس ...

.....

.....

.....

.....

!!!!؟؟؟؟.....

الباب المفتوح

كان صوته يجلجل ملء قصره المنيف الخرافي ذي الأبواب الماسية ، في قصره ألف جارية ، وألف غلام ، وفي سجنه المنيع ألف سجين ، لكنّهم ينعمون بالسعادة ؛ لأنّه أعدّ لهم أسرّةً من ماس،وطرائف وحشايا من ريش النعام أسوة بما في قصره، يقع قصره في منتصف السلطنة ، بل السلطنة تقع في منتصف قصره الذي يقع في أرض ما ، في زمان ما ،قصته قصةٌ قديمة تمزقّ عنوانها ، وأرقام صفحاتها ، ولم يبقَ منها إلاّ هو وشعبه السعيد، هكذا تقول القصة ، والويل للرعية إنّ لم تقل ما تقوله القصة . منذ سنوات لم يسر على قدميه فقد اعتاد أنّ يحمله العبيد على محفّته الذهبية التي أُعدت لتنقلاته ، حتى عندما خرج في حملة إحسان لجمع التبرعات لفقراء وأيتام السلطنة ،وما أكثرهم كانوا!! اعتلى المحفّة التي أمرّ أنّ يُكتب عليها بالذهب :" هذا من فضل ربي "، وفي عينيه كانت تتلألأ دموع الرحمة المصطنعة ،وهو يرقب المواطنين الحفاة شبه العراة الذين

يحيطون بمحفته المقدّسة.

كان يقرأ قصة قيل إنّها لم تحدث ، وقيل إنّها حدثتْ من ألف عام ، مصدر مسؤول صرّح إنّها ستحدث بعد ألف عام ، بعضهم همس وقال إنّ هذا القصة حدثتّ لأنّ السلطان أراد ذلك ، وطاعة الله من طاعة السلطان ، الذي يصلي الفرائض في المسجد ، كثيراً ما ينسى أنّ يتوضأ ، لكن العبرة في القلب ،وقلبه عامر بالحب والرحمة ، وقيل إنّ نسبه الطيب يمتدّ إلى زوجة يوسف عليه السلام ، بالتحديد إلى نسب مولاها الخصيّ الذي لا تذكر التواريخ أيّ شيء عنه ، الراوي همس في أُذن البعض من الناس ، وقال مبتسماً بخبث :" زليخة لم يكن لها أي عبد".في اليوم الثاني وجدوا لسانه يسعى مذعوراً بعد أن قُطع من غير سبب محدّد.

سلطان الزمان كان يرفس سعيداً بقدميه ،وهو يقرأ عن سلطانٍ في الزمن الغابر قال له أحد رعاياه المسمّى سليمان الفارسي:" لا سمعاً ولا طاعة ، لانسمع"؛ لأنّه خصّ نفسه بذراع إضافي من القماش دون رعيته ، فلما ظهر عدله ، وأثبت أنّه أخذ ذلك الذراع من ولده عبدالله ، قال له سليمان الفارسي:" الآن سمعاً وطاعة ،قل ونحن نسمع " . وعندما لام الناس الرجل على فعلته قال لهم السلطان الخرافي في عدله:"لا خير فيكم إن لم تقولوها،ولا خير فينا إن لم نسمعها".

أعجبه ذلك الرجل العادل ،وذكّره بشـــيءٍ لا يعرفه ، وبنكهة لم

يذقها ، انتفخت أوداجه سروراً ، وكاد يهلّل في مكانه ، بل أنّ ينزل عن تخت ملكه ، لكنّ بطنه المتكوّم أمامه أعاق حركته ، بل إنّه منعه من أن يرى بروز أعضائه التناسلية التي عالجها طويلاً، ودفع ربع ريع أراضي الشعب لمشافي الواق واق حتى امتدت وتضمخّت كما يجب ،وذلك فقط ليقوم بمهامه الجنسية بشكل يرفع رأسه مع محضياته الألف،وهو حريص على قضية الرأس المرفوع؛ولذلك يرفع رؤوس معارضيه على أعواد المشانق.

حدّق في وزيره ، وقال له :" ما اسم ذلك الرجل العادل؟" .

قال وزير المدارك بثقة وهو يتمطّى :" لا أعرف يا مولاي ، ولكن أعرف أنّه من أمر بإحراق أهل الأخدود".

قال السلطان باهتمام :" ومن هم أهل الأخدود؟".

أجاب الوزير بلكنة الحكيم المثقل بعلمه:" أهل الأخدود من الشعوب الهندية التي ماتت في فيضان نهر بومباي في إيطاليا في عام مليون قبل الميلاد".

من جديد قرأ السلطان القصة على أسماع وزرائه ، كان يوزّع نظراته بينهم وبين ما يقرأ ، شعروا أنّ عليهم أنّ يبدوا سعادةً بما يقرأ السلطان ، وأن يثنوا على ذوقه الرفيع في اختيار القصص . وفجأة قال لهم السلطان بحماس لا يقلّ عن حماسه الحيواني وهو يتلظّى ويذبّ لثاثته أمام موائد طعامه التي لا تعرف نهاية :" أريد باباً مفتوحاً ".

قال الوزراء بصوت واحد :" باباً مفتوحاً !!!."
قال وزير الدين الذي لطالما سمع السلطان يضرط في الصلاة، ولم يعلّق على ذلك بغير الدعاء بتقبّل صلاته الطاهرة :" وماذا تعني بالباب المفتوح يا مولاي أعزك الله وأدامك عزاً لنا ؟".
قال السطان :" هذه القصة ذكرتني بسلطان قرأت عنه في سِفْر العالم السعيد ، في مكان ما في الدنيا ، يفتح السلطان باب قصره للشّعب ، ولا يعيّن حاجباً على بابه ، يكتب في قرطاس إلكتروني وبحروف كهربائية جدول أعماله في ذلك اليوم ، ومن حق أيّ فرد من الرعية مهما قلّ شأنه وخمل ذكره أنّ يقرأ ذلك الجدول ، وأن يحاسبه إنّ رأى أنّ في برنامجه ما لا يخدم المصلحة العامة ، وذلك من خلال رسالة خطية يوجهها إلى السلطان ، الذي عليه أنّ يردّ على رسالة المواطن في موعد لا يتجاوز مسيرة يوم. وذلك السلطان أوعز إلى كاتب ديوانه أنّ يطلق على هذه السياسة (سياسة الباب المفتوح) ؛لأنّ أبواب قصره لا تُغلق في وجه رعيته. وأنا أريد أنّ أطبّق هذه السياسة مع الرعية .

عجب الوزراء مما سمعوا ، وشعروا بالقلق من هذه السياسة ، ولعنوا في دواخلهم ذلك الباب الذي سيتفح عليهم أبواب جهنم ويغلق دونهم أبواب الجباية والحرب والاستعباد. في اليوم الثاني ركب وزير الأخبار حماراً أخضر ، وحمل صبيانه الطبول ، وأعلن على الملأ أنّ السلطان أدام الله عدله قد استحدث مشروعاً وطنياً أسماه (الباب المفتوح).

في اليوم الأول لم يخرج أحد من بيته خوفاً من عواقب هذا المشروع ، أمّا في اليوم الثاني خرج فقط الأوباش وقاطعو الطرق طمعاً في سرقة الباب ؛لأّنه مفتوح، بعد ذلك مرّ الكلّ من أمام الباب ، ولم يجرؤوا حتى على الاقتراب منه فضلاًعن قراءة جدول أعمال السلطان ؛ فهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك ، كان يكفيهم أنّ يفتحوا الصفحة السابقة من قصتنا هذه حتى يعرفوا برنامج السلطان.

انتظر السلطان طويلاً وطويلاً أنّ تأتيه رسالة من مواطن ما ، وتخيّل كم سيستمتع بعبثه مع مرسلها ،وطال انتظاره، ولم تصله أيّ رسالة ،عندها غضب بشدة ، وأمر أنّ تُرسل له الرسائل وإلاّ سيغضب ويخسف الأرض برعيته ، ويجعل ماءها غواراً، ويسقط سماءها قطعاً. سمعت الرعية عن غضب السلطان واشتد رعبها . في تلك الليلة وصلت إلى السلطان رسالة صغيرة ، كُتبت بيدِ فضولية ، فضّ السلطان الرسالة على عجلٍ وبفضولٍ ، وأمرّ كهرمانه أنّ يقرأها ، قرأ الكهرمان الرسالة بعينيه،ثم ابتسم ، ثم شعر بقلق حيال ما سيقرأ، وللحظات شعر أنّه سيكون أوّل ضحايا الباب المفتوح ، قال السلطان له:"ما بالك ؟اقرأ..."

بلع الكهرمان ريقه ،وبدأ يقرأ ما ورد في الرسالة التي كُتب فيها:" مولاي أنا ابن المزارع دهبور ، عمري تسع سنوات،أريد أنّ أعرف لماذا منعتَ الرعية من شرب الحليب مع أنّه مفيد للصحة، أحقاً إنّك تملك بحيرة من الحليب تسبح فيها محظياتك لينعمن ببشرة جميلة؟!!!!

ضحك السلطان طويلاً مما سمع ، ثم صمت ، ثم أزبد وأرعد، وأعلن أنّ سياسة الباب المفتوح قد عُلّقتْ إلى الأبد ؛ لأنّ الباب سيغلق، وعلى بابه أُعدم ألف طفل ثبت أنّهم يشربون الحليب في الأحلام ، والمحتجّون على استحياء كبلّهم جنود السلطان بأغلالٍ وسلاسل من ذهب ، ثم أرسلهم الى قصة أخرى ،وكان حريصاً على أنّ يكون في قصتهم وحوشٌ كاسرة وأرضٌ بلا لبن .. وقلب الصفحة..

وسكت الراوي عن الكلام غير المباح،ولكن الجدّات بقين يحدّثن الصغار وبالسّر عن الأطفال الذين أُعدموا ؛لأنّهم حلموا بالحليب الذي تستحم به جواري السلطان.

الجدار الزّجاجيّ

جدارٌ زجاجيٌّ رقيق كما رقاقة كنافة هو أوّل من أذاقه الحرمان، وعرّفه لوعة التّنائي، لا زال يذكر للآن زجاج نافذة سيّارة الأجرة التّي أقلّت أمّه بعيداً، ومنذ ذلك اليوم لم يرها أبداً، كانت طيّبةً كالسّماء، طاهرةً كدمعة، بنيتها صغيرة تصلح للدّلال والمداعبة، ملابسها قديمة، ومنديلٌ أصفر قديم يحيط برأسها، ويطوّق رقبتها، اعتاد أن يراها كسيرةً تستمرئ الذّلّ بدمعةٍ صاغرةٍ، لم يسمعها يوماً تسبُّ أحداً، لم يسمعها يوماً تحلم بغدٍ جديد، لا يذكر من كلامها إلاّ جملة "الله يرضى عليك يامّه يا شاهر"، شعرها الأسود النّاعم هو كلّ ما كان يرى من أنوثتها الكسيرة، مرّةً واحدةً رآها عاريةً تماماً، تتلوّى بانكسارٍ تحت ضربات (بربيش) أبيه، الذّي اعتاد أن يعرّيها من ملابسها، وأن يغلق باب البيت، ويضربها حتّى يدميها لأيٍّ ذنبٍ تقترفه، كان ذنبها في ذاك النّهار أنّها ادّخرت دون أن يعلم مقداراً قليلاً من المال من العيديّة الزّهيدة التّي يتذكّرها بها أخوها الوحيد في

كلَّ عامٍ، يدسّها في يدها كالمعاقب، ويغيب لعامٍ آخر، دون أن يفكّر في أن يقول لها ولو لمرّةٍ واحدةٍ: كيف هي أحوالكِ يا أختي الصّغيرة؟ التّي سرقتها من طفولتها، ودفعتَ بها ولعبتها في حضن رجلٍ في عمر أبيها بحجّة ورقة بالية اسمها عقد زواج.

لأكثر من مرّةٍ كسر خرطوم الماء الخاصِّ بأبيه (بربيش) إصبعاً من أصابع أمّه التّي كانت بنحول وضعف وهشاشة حبّات خيارٍ صغيرة، وأخيراً قرّر أن يلفظ كومة اللّحم المستكينة التّي تسمّى أمّه، جاء خاله بناءً على رغبة أبيه، مستقلاً سيّارة أجرةٍ ودسّها فيها وهي تحمل كلّ ما تملك في الدّنيا، تحمل ملابسها القليلة التّي جمعتها في منديلٍ أخضر صغير، وصرّته بإحكامٍ، لم يكن منديلها بل منديل أخته عيشة التّي تكبره بسنواتٍ، لم يأبه أبوه لرحيلها لدرجة أنّه نسي أن يمنعه وأخته من الحزن، يومها بكى بشدّة، وأراد أن يقول لها إنّي أحبّكِ، لأوّل مرّةٍ علا صوته في حضور أبيه، تمنّى لو أنّه يمسك بأردان ثوبها ليرجوها البقاء، كان في عينيها حزنٌ وانكسار من أُجبر على الرّحيل، قالت له بذلّ وبنبرة من يموت: "يمّه يا شاهر دير بالك على أختك"، وغاب صوتها، ابتلعته السّيّارة التّي أقفل خاله آخر أبوابها المشرّعة، كان زجاج نافذة السّيّارة هو الجدار الزّجاجيّ الذّي فصلها عن دنياه، وعزل صوتها عن مسمعه، قالت كلماتٍ لم يسمعها بسبب الجدار الزّجاجيّ الذّي لا يقلّ قسوةً عن قسوة أبيه وخاله، وقال كلمـــاتٍ كثيرةٍ ســـــمعها كلُّ الجيران إلاّ هي، وغـــادرت، ولم تعد،

ولم يَسمع منها أو عنها أبداً، فقد ابتلعها الجدار الزّجاجيّ للأبد، وبقي هو وأخته عيشه التّي فقدت منديلها الأخضر الوحيد مخلّفاتٍ بائسةً غير مرغوبٍ فيها من عهد امرأةٍ طلّقها أبوه كانت تُسمّى زوجته، ومُنِع وأخته في ما بعد من أن يُسمّوها أمّي . . .

وأُجبر على أن ينادي الخالة عايشة باسم أمّي، حتّى وهي تضربه بخرطوم الماء البلاستيكي الأزرق الذّي برى طفولته، وأكل راقاتٍ من جلده، كان عليه أن يرجوها التّوقّف وهو يقول: "يامّه بكفّي، توبة والله، ما عدت أعيدها، يامّه مشان الله توبة". ولكنّها ما كانت تتوقّف حتّى يبول على نفسه وعلى حشيته القذرة المخصّصة لنومه، فتزعق منادية عيشة، منتفخة الأوداج ، مضطربة الأنفاس، فينتفخ صدرها الرّخو كما قربة، ويكاد يحول دون رؤية رقبتها الغليظة ذات الثالول الكبير، وتأتي عيشه لتأخذ المقسوم من البربيش الأزرق، وتتولّى تنظيف وغسل الحشية البالية التّي أفسدها أخوها الملعون في سِفْر زوجة أبيها.

لطالما شاهد تعذيب عيشة التّي بقيت دون منديل منذ رحيل أمّها، تمنّى أن ينقذها، دعى الله أكثر من مرّةٍ ليهبه قوّةً جبّارةً، ليقدّ زوجة أبيه إلى نصفين، ويتلف بأحشائها ودمائها وريحها كلّ أثاثها الفاخر الذّي اشتراه أبوه صاغراً تحقيقاً لرغباتها، ولكنّ الله لم يستجب له، ولو لمرّةٍ واحدةٍ، وبقي يشاهد تعذيب عيشة دون أن ينبس ببنت شفـــــة، وبقي الجدار الزّجاجيّ فاصـــــلاً بينه وبين عيشـــــة كما

كان فاصلاً بينه وبين أمّه .

كان يمضي ساعاتٍ طويلةً يجلس القرفصاء عالقاً بين قضبان النّافذة وزجاجها، لقد اعتادت زوجة أبيه على أن تحبسه في هذا المكان الغريب، فقد تفتّق حقدها على أبناء زوجها عن هذه الزّنزانة الزّجاجيّة الرّهيبة، تحبسه في سنتمتراتٍ قليلةٍ طوال النّهار، حيث لا مكان للوقوف ولا للجلوس، فيجلس القرفصاء حتّى تكاد عظام ركبته تخرق جلده الرّقيق الهزيل، وتنفر منه. ومن خلف ذلك الجدار الزّجاجيّ رأى طفولة عيشه وطفولته تُسحق دون رحمة، ومن خلفه رأى كذلك أبناء أبيه والخالة عايشة يرتعون في خير أبيه المحدود الذّي كان هو وأخته خارج دائرته تماماً.

كم كره الجدار الزّجاجيّ!! وكم كره الزّجاج!! كان يراقب أخوته من أبيه يشربون في كؤوسٍ زجاجيّةٍ شفّافةٍ كما طلّ الصّباح، قدّرت طفولته المحرومة أن طعم الشّاي فيها ألذ، ولكنّه لم يجرّب ذلك أبداً، فقد كان مُحرّماً عليه وعلى عيشه أن يشربا أو يأكلا في الزّجاج، لأنّهما لا يستحقّان ذلك، لماذا لا يستحقّان؟ لا يعرف ومن يهمّه أن يعرف لماذا لا يستحقّان؟! ما كان أحدٌ يبالي بطفلَيْن يحلمان في أن يأكلا وأن يشربا في أواني زجاجيّة، بدل أوانيهم النّحاسيّة القذرة المعوجّة الثّنايا ، المنبعجة القيعان.

كان يُسمح له فقط في اللّيل بمغادرة حبسه الانفراديِّ الزّجاجيِّ ما بين قضبان النّافذة وزجاجها، ليندسَّ في فراشـــه البالي إلى جانب

عيشة التّي بدأت تكتسي بجلدٍ خشن كما جلد وزغة من كثرة العمل والشّقاء، كانت تتكوّر بذلٍّ إلى جانبه، فيضمّ صباها المسكوب بدمعة رجلٍ لا طفل، ويعدها بالخلاص، ولكنّ الخلاص لم يأتِ، فقد كان يفصله عنه كلّ جدران الدّنيا، ولا سيّما الباب الزّجاجيّ الذّي يفصل غرفته عن غرفة نوم أبيه وزوجته، كان يسمع من خلفه شخيرهما ونهيقهما وأحياناً زفيرهما في حمأة لقاء جسديٍّ سخين، ينبتُ له أخوةً جدداً لا يعرف عنهم إلاّ أسماءهم، وكان متعجّباً أنّى لأبيه أن يحتضن جسد أمّه عايشة المتراخي بترهّلٍ كما عجينٍ متخمّرٍ فاض عن وعائه في ليلة صيف دبقه؟!

لكنّه لم يجد أبداً أجوبةً لأسئلته كما لم يجد طريقةً يخترق فيها الجدار الزّجاجيّ ليوصل شكواه لأبيه الذّي ما شكّ يوماً بإهماله له ولأخته ،ولا في لا مبالاته بمصيرهما ما دام يستمرئ دفء جسد أمّه عايشة، وبقي الجدار الزّجاجيّ عملاقاً يحرمه من أبيه ومن أمّه ومن طفولته التّي تفرّ ببطءٍ مشحونٍ بالأحلام، في كلّ ليلةٍ حلم بأنّه قد حطّم ذلك الحائط الملعون، وأنّه تبوّل بسخاءٍ على حطامه الذّي حاصر عايشة وأغرقها.

كان يستيقظ سعيداً وآملاً في أن يجد تحت قدميه حطام الجدار، لكنّ أحلامه كانت تذهب سدىً وأضغاث تمنيّات، كان يستيقظ ليجد الجدار الزّجاجيّ، وليجد نفسه غارقاً في تبوّله اللاّ إراديّ الذّي عانى منه منذ أن رحلت أمّه، وتركته في عهد ضرّةٍ من جنس

الكفرة.

وكبر وحلمه ما كبر، بقي يحلم بتحطيم الجدار الزّجاجيّ، الذي حطّمه أمام وهيج النّار التّي أكلت عيشة حدّ القرمشة، دلقت عيشة الكاز على نفسها من الوابور النّفطيّ، أحرقت بجسدها كلّ جدران الدّنيا، وأطعمت نفسها للنّسيان، كان محبوساً بين الزجاج والقضبان عندما حاصرتها النّار بشهيّةً، حطّم الزّجاج بقبضته الهزيلة، وطفق يطفئها مع أبناء أبيه ومع الجيران الذّين استنفرهم صراخها وعويلها، كانت كتلةً صغيرةً متفحّمةً عندما اشتملها بعطفه، وضمّها إلى جسده.

ومن جديد فصله عنها جدارٌ زجاجيٌّ آخر، قال الأطبّاء إنّ حالتها خطيرة، وإنّ عظامها المعرّاة دون جلدٍ إلاّ من مزقٍ محترقةٍ عرضةٌ للجراثيم والبكتيريا، فوضعوها عاريةً في علبةٍ زجاجيّةٍ، كان يتمنّى لو أنه يستطيع أن يمسّد بيده على رأسها ذي الشّعر المتلبّد المتفحّم، حلم بأن يضمّها إلى جسده، لكنّ الجدار الزّجاجيّ حرمه أيضاً منها، ووقف سدّاً منيعاً يحصر آهاتها، ويأسر أحزانه، كانت في غيبوبةٍ عميقةٍ لا تتكلّم ولا تبكي، ولاتتألّم بفضل المخدّر الذي يُعطى لها بسخاء، ولكن تدندن بأغنيةٍ حميمةٍ حفظتها من أمّها أيّام سُمح لها أن يكون لها أمّ، كانت أغنيةً فرحة اعتادت أمّه أن تهدهده وإيّاها بها، لم يكن يسمع صوتها بسبب الجدار الزّجاجيّ الفاصل، ولكنّه كان يعرف من حركة شفتيها اللّتين تلبّتا على شكل كتلتين

محترقتين أيّ مقاطع الأغنية تردّد، كان يشاركها ترديد الأغنية، ويتخيّل أنّه يسمع صوتها الرّقيق، فقد كانت تحبُّ الغناء قبل أن تبتلع القطّة لسانها على حدِّ تعبير الخالة عايشة.

ردّد الأغنية مع عيشة عشرات المرّات، كان متأكّداً من أنّ عيشة تحلم بحضن أمّها التّي ابتلعها النّسيان، عندما توقّفت حركة شفتيها، أدرك أنّها قد ارتاحت للأبد، وأنّ الجدار الزجاجي قد كفّنها خلف صمته، وابتلعها كما ابتلع أمّه دون رجعة.

لم يحضر دفن عيشة؛ لأنّه كان يخشى جبروت الجدار، هام في الشّوارع، وهرب إلى أبعد مكانٍ تتصوّره طفولته، هرب إلى أبعد أحياء المدينة، كان يتخيّل في كلّ لحظةٍ أنّ يداً عملاقة مشعوعرة تضع أوزارها على كتفه وتشدّه إلى البيت الذّي هرب منه، طاردته اليد في كلّ مكان، ولكن عندما أيقن أنّ اختفاءه أسعد مملكة أمّه عايشة، سبّها بقوّةٍ، وبزق باستخفافٍ على الأرض، أشعل ناراً كبيرةً احتوت كلّ أخشاب وكرتون الحارة في ملجئه الصّغير، ورقص حولها عاريّاً، ثمّ تبوّل عليها، ونام ملأ شوارده.

حصل على لقمة عيشه من العمل المضني عند نجّارٍ طيّبٍ في عمر زهرة، كان قد أشفق على ضياعه وجوعه وضمّه إلى عمّال منجرته، يعمل قليلاً، بقدر خبرته وطفولته،وما أقلّها من خبرة!! وينقده من المال ما يقدّر أنّه يفي بحاجاته، ثمّ يلوذ وحيداً إلى بيته الذّي اتّخذه تحت السّلّم الإسمنتيّ في أحد المدارس القديمة، كان بيته

لا يتجاوز المتر في مترين، ولكنّه كان كافياً ويرضيه للغاية، فقد كان يشعره بالطّمأنينة، وإن كان يجبره على التّكوّر على نفسه لينام داخله. وقد كان له الفضل في إطلاق عنانه وأمنياته، فما يكاد ينام حتّى يدلف دنيا من النّور والدفء والحبّ حيث أمّه وعيشه ولا جدار زجاجيّ، ويستيقظ سعيداً، متفقّداً ثيابه الجافّة بفضول، ليتأكّد من أنّه قد انتصر تماماً على التّبوّل اللاّ إراديّ.

حلم برؤية الدّنيا، ولكنّ الشّتاء الذّي داهم المدينة مبكّراً أجّل أحلامه، كانت هذه اللّيلة من أبرد اللّيالي التّي شهدها في حياته، تربّع البرد في عظامه، ونخر عزمه الطّفوليّ البريء، فكّر في أن يلجأ إلى بيت النّجّار الطّيّب، الذّي خدعه دائماً بإدعائه السكنى في القريب مع أصدقاء في مثل ظروفه، وما أعلمه أبداً أنه يعيش ككلبٍ ضالٍّ تحت درج أحد المدارس، عقد النّيّة على أن يقضي اللّيلة في بيته، فالبرد أقسى ممّا يحتمل، وما يظنّه يمانع أو تمانع زوجته الجميلة في ذلك.

أطلق ساقيه النّحيلتين للرّيح الباردة، وكان بعد دقائق أمام بيت النجّار، بالتّحديد أمام الشّرفة الزّجاجيّة التّي يُدلف من بابها إلى الدّاخل، استرق بعض النّظرات، كان النّور الخافت يسرج في الظّلام الذّي خيّم على البيت، قدّر أنّ الكلّ نيامٌ في دفءٍ لذيذ، حاول أن يطرق الجدار الزّجاجيّ الجديد الذّي يفصله عن الدّفء ولكنّ قوّةً ما أذابت عزمه، وأبرزت خجله، تكوّم بالقرب من الجدار، ذهب في

إغفاءةٍ لذيذةٍ، تكوّر على نفسه حدّ الالتصاق، كان البرد في اشتداد، وبعض قطع الثّلج القطنيّة تهبط على رقبته التّي انكشفت بوضوحٍ من تحت سترته الجلديّة القديمة، التي حصل عليها من النجّار، رأى في حلمه كلّ جدران الدّنيا وقد دُكّت شظايا وحطاماً،استيقظ من إغفاءته، كانت أطرافه متيبّسةً باردة، بصق في يديه، لعلّه يهبهما دفعة دفءٍ منعشة، عزم على أن يتحدّى الجدار، وأن يقرعه طلباً للدّفء والمأوى، ولكنّ أطرافه المتجمّدة قهرت إرادته، استسلم بذلٍّ للجدار الزّجاجيّ الذّي رأى ابتسامة سخريةٍ تندى من برودته الصّقيقة، وغاب في أحلامه . . .

في الصّباح كان المكان يزهو بثوبٍ أبيضٍ من الثّلج الجميل، وإلى جانب الشّرفة الزّجاجيّة كتلة متجمّدةً اسمها شاهر، الذّي كُسي وجهه بالثّلج، وبابتسامةٍ عميقةٍ غريبةٍ . . . تدلُّ على راحةٍ أبديّة.

ملك القلوب

البعض يقول إنّه مبروك ، وإنّ له كرامات مع أنّهم لم يروا له يوماً ولو كرامةً واحدة، البعض همس إنّه لا يصلّي أصلاً لكي تكون له كرامة الأولياء والصّالحين، همس فضوليون ضاحكون إنّه على دينٍ عجيب تدين به مردة الجان، بعض النّساء تستعيذ منه، وتعدّه ممسوساً أو على أفضل تقدير على علاقةٍ مع الجان، إحدى عواجيز البلدة زعمت مرّةً بضحكةٍ تنزّ عن سنّها الوحيد الذّي نخرته السّوس بلا رحمة أنّه من ذراري الغجر، وبقايا بني ساسان، أمّا هو فلم يكن يصرّح بالكثير عن نفسه، بل يجيب عن الأسئلة الفضوليّة بقهقهةٍ مجلجلةٍ تبرز ترقوته، وتهزّ معطفَيْه، وتبرز شفتيه الغليظتين الغارقتين في لحيةٍ شعثاء مثل غابةٍ شوكيّةٍ، فيردّد الكهف الذّي يسكنه ضحكته، وجملته المعهودة، "افتح كفّك اليمنى، وصفّي قلبك . . . وأظهر بياضك، وكلّه على ربّك".

لا أحد يذكر تماماً متى ظهر في هذا المكان، حقيقةً لا أحد معنيٌّ

بالتّذكّر، فالكلّ ضائعٌ مُضاع، حتّى أنّه كاد ينسى من أين له بهذه العباءة الحمراء المقصّبة بالذّهب، ولا أيّ الأسواق دفعت له بهذه القبّعة العظيمة التّي تشبه قبّعات ناسكٍ من السّيخ، كلّ ما يذكره أنّه ملك القلوب، يأتيه الشّابّ وقد خلا قلبه من الحبّ فيعطيه تعويذةً في قطعةٍ جلديّةٍ أو قماشيّةٍ ملوّنة، وما يحلّ المساء إلاّ ولذلك الشّابّ حبيبة، تأتيه النّساء بقطعٍ من ملابس رجالهنّ المهاجرين أو الغائبين أو المعرضين، فيعطيهنّ تمائم سحريّة، تعيد الغائب، وتردّ المهاجر، وتُسيل شهوة المُعْرِض.

بعض الحالات تستعصي على تمائمه السّحريّة، فيُعدّ لذلك الشّراب السّحريّ الذّي يحضّره من منقوع أيّ شيءٍ أحمر، فليست العبرة في المادّة التّي يحضّر المنقوع منها، بل العبرة في تمتماته السّحريّة، وتعاويذه التّي حفظها من سِفْر الحبّ الأعظم عندما كان يتَتَلْمذ على يديّ ذلك السّاحر المغربيّ الذّي يسكن تخوم جبل قاف.

لم يكن تلميذه الوحيد، ولكنّه كان تلميذه المفضّل، لطالما استبشر أستاذه خيراً به، وقال إنّه سيكون خليفته على عرش السّحر الأسود الأعظم، ولكنّه لم يكن يريد سحراً أسودَ، يُحزن القلوب، ويدمي الأنفس، ويُفرّق المحبّين، لقد كان يريد سحراً يستطيع أن يسرق السّعادة ليهبها لكلّ محتاجٍ ومتمنٍّ، وبهذه الرّغبة بالذّات سوّغ لنفسه أن يخالف أوامر أستاذه، وأن يطّلع على سِفْر السّحر الأعظم، وأن يحفظ عن ظهر قلب تمائم الحبّ، وتعاويذ جلبه، عن ظهر قلب حفظ

كلّ كلمةٍ مكتوبةٍ، شعر أنّ هذه الكلمات السّحريّة العذبة قد زُرعتْ في قرارة وجدانه للأبد، وأنّها أزهرت حبّاً وعشقاً يكفي كلّ الدّنيا، تشبّعت كلّ خليّةٍ من خلاياه بوقع الكلمات السّحريّة، وامتلأت نفسه نشوة لم يعرفها من قبل، وكاد الأمر يمرّ دون أن يعرف السّاحر المغربيّ بسطوه على سِفْره العجيب، لولا أنّ أريج كلماته، وهسيس صوته قد نقل للمغربيّ وشايةَ سرقته، غضب السّاحر كما لم يغضب من قبل، وحاول أن يمتصّ بسحره الكلمات الخالدة التّي حفظها تلميذه الخائن، ولكن دون فائدة، فالكلمات ذابت للأبد في وشائج السّاحر التّلميذ وفي روحه، كما اختفت للأبد من سِفْر السّحر الأعظم.

اللّيلة العاصفة كانت آخر ذكرى السّاحر التّلميذ المشتاق للحبّ عن قلعة المغربيّ التّي تلاشت بلحظات، وكأنّها لم تكن، وتباعدت الأرض حتّى أصبح في ركنٍ آخر من الدّنيا، ولكنّه لم يبالِ ؛ فقد كانت غنيمته تفوق غضب أستاذه، وتفوق كذلك اللّعنة التّي سلّطها عليه، بالتّحديد كان واثقاً من أنّه سيستطيع أن يفكّ لعنة السّاحر المغربيّ عنه، لقد قال المغربيّ إنّه قد لعنه في قلبه الذي لن يعرف الحبّ يوماً، ولن يذوقه مع امرأة أبداً، خشي السّاحر التّلميذ اللّعنة للحظات، ثمّ هزّ كتفَيْه غير مبالٍ ، وقال بزهوٍ وسعادة: "ولكنّي الآن ملك القلوب ،آمرها فتطيع، أمنعها فتنتهي، أنا ملك القلوب".

كان ملك القلوب . . . الكلّ شهد له بذلك، والكلّ دفع المال له

صاغراً من أجل ذلك، كان يملك كلّ القلوب إلاّ قلبه هو، فهو لم يملكه أبداً، كان يشعر أنّه غائرٌ في مكانٍ ما حدّ الانسحاق، وأنّه ملعونٌ أسود كما عباءة السّاحر المغربيّ، استثمر كلّ سحره، وتلا كلّ ما عرف وحفظ من ترنيمات وتعاويذ الحبّ من أجل قلبه لكن دون فائدة ، بقي يقطع نهاراته في دفع التّعويذات والمساحيق والمراهم والمشاريب السّحريّة لكلّ طالبٍ يدفع ثمناً لها، كان قِبْلَة المحبّين في هذه الدّنيا، امتلأت مغارته بالجوهر والمال حتّى أُتخمت، فكّر في أن يتمنّى بحراً في مغارته ليتّسع لكلّ هذا الجوهر، قدّر أنّه سيكون بحراً ساحراً، ماؤه الدّرّ، ولجّته الجوهر، وساحله الذّهب، بتعويذةٍ واحدة، وضربةٍ من صولجانه السّحريّ انشقّت أرض المغارة عن بحرٍ يهدر في أعماقها، كان بحراً ساحراً، يتّسع لكلّ جوهره، لكنّه بقي حزيناً؛ لأنّه يملك قلباً لا يعرف معنى الحبّ، وإن كانت نفسه تهدر بكلّ معاني وجزيئات وتجلّيات الحبّ.

من آخر الدّنيا جاء إليه العاشقون والمحتارون، كلّهم عادوا سعيدين راضين، بل إنّ البعض عاد مرّةً واثنتَيْن وثلاثاً ليُبدّل قدر قلبه، ويحوّل عشقه، كان يستمع باهتمام إلى مطالبهم، ويهزّ رأسه متفهّماً لشكواهم، يلاعب بيديه المشعوعرتين لحيته الطّويلة، ويحرّك حاجبيه الكثيفين، ثمّ يعطيهم المطلوب بالأجر نفسه، وإن كان البعض يُصــرّ عليــه لأخذ ما حمــلوه له من جوهــر أو حتّى من قمح وزبيب وأجبان.

عندما كانت تخلو مغارته من الزّائرين، وقليلاً ما كانت تخلو، كان يجلس على عرشه الماسيّ، ويُعزّي نفسه قائلاً ردّاً على هواجسه وأحزانه: "ولكنّني ملك القلوب".

فتقول نفسه بغير تردّد: "ولكنّي أريد حبّاً . . . يا ملك القلوب أنتَ في أمسّ الحاجة إلى قلبٍ واحد، واحدٍ فقط . . . أهذا كثير؟!"

فيكرّر بيأسٍ من جديد: "ولكنّي ملك القلوب"، وينخرط في بكاءٍ هادر يحرّك أمواج بحره الغائر في مغارته، ويحرّك كلمات العشق الذّائبة في دمه.

توقّع هذه المرة أن يهدر ساعاتٍ بدموعه، لكنّ السّحابة السّوداء التّي لفّت مغارته، وأسكنت هدير بحره، أثارت دهشته، بل وخوفه، لا أحد يملك مثل هذه السّحابة الملعونة إلاّ رجل واحد، واحد فقط، ولا بدّ أن يكون ساحراً، بل وكبير السّحرة، نعم إنّه السّاحر المغربيّ، سكنه خوفٌ كبير والسّحابة تغشى عينَيْه، وتنحّل في رجلٍ مارد مازال يحفظ قسماته على الرّغم من غيابه عنه لآلاف السّنين، لو أُعطي ألف خيارٍ ضوئيّ لما استطاع أن يُقدّر سبب زيارة حَبْر السّحر الأعظم، انحنى ملك القلوب لأستاذه بكلّ أدب، وقال له: "إذن يا أستاذي الجليل فقد التقينا بعد طول فراق".

حدّق السّاحر الأعظم في عَيْنَيْ ملك القلوب، طار خفّاشان من سويداء قعرهما، وقال بصوتٍ أجشٍّ ملأ المكان برودةً وعفونة: "لم آتيك محبّاً ولا مشــتاقاً، ولكنّي جئتُ مضطرّاً، أنتَ تعرف أنّني ملك

السّحر الأسود".

- قال ملك القلوب مقاطعاً بزهوٍ وغرورٍ وتفاخر: "إلاّ القلوب ،فأنا ملكها".
- ردّ المغربيّ بانكسارٍ وإقرار: "إلاّ القلوب، فأنتَ ملكها، ولذلك جئتُكَ، ابنتي بهجة هي كلّ دنياي، وُلدت بقلبٍ شفّاف، فارغ من كلّ مشاعر، لا يعرف معنى سعادةٍ أو هناءة، كانت على ما يرام، إلى أن كبُرتْ، ومنذ ذلك الوقت، غدا جمالها شاحباً، وبات المرض يبريها، أنا اعلم أنّ علّتها في قلبها، اصنع لها تعويذةً تشفيها، وترُدّ قلبها إليها ".
- قال ملك القلوب: "وماذا عن قلبي أنا؟ ألن تفُكّ اللّعنة التّي تسكنه".

صمت السّاحر الأكبر، وأُسقط في يديه، وأيقن أنّه في صدد مقايضةٍ لا مفرّ منها، فقلب ابنته في الميزان مقابل قلب تلميذه الخائن، قال بغيظ: "عند أوّل دقّة قلبٍ لقلب ابنتي، ستسمع وجيب قلبكَ يهدر في صدركَ اللّعين". فرح ملك القلوب بهذه المقايضة التّي رتّبها له القدر بعد انتظارٍ عمره آلاف السّنين، وقال بتكبّر: "يجب علي أن أرى ابنتكَ، وأُعاين حالتها بنفسي كي أتمتم في أُذنيها بالكلمات السّحريّة المناسبة".

أومأ السّاحر الأكبر برأسه موافقاً، وفي لحظات كان وتلميذه في رأس جبل قاف حيث تقبع قلعته الباردة، التّي يلفّها السّحر الأســـود،

كانت موحشةً مظلمة تماماً كما تركها ملك القلوب قبل آلاف السّنوات، كانت مألوفةً له تماماً، فقد كان يحفظ كلّ ركنٍ فيها، لكنّ وجه بهجة كان شيئاً لم يألفه في حياته، كانت رقيقةً مثل سحابة صيف، عروقها تبرز من تحت أديمها الشّاحب الذّي أعياه المرض، وضع يده الدّافئة على جدائل شعرها المتقصّف، فأزهرت زهوره ورديّة ربيعيّة، فتحت عينَيْها الذّابلتين، وقالت بصعوبةٍ وإعياء: "أبي . . . هل عُدتّ؟"

- قال السّاحر الأعظم بحنوٍّ لم يألفه ملك القلوب فيه : "نعم لقد عدتُ يا بهجة . . . "

سأل ملك القلوب الساحر الأعظم بعزيفٍ حزين: "منذ متى هي مريضة؟"

ردّ السّاحر الأعظم: "منذ ألف سنة!"

داعب ملك القلوب وجنتيها الذّابلتين وقال: "يا إلهي!! لستُ متأكّداً من أنّ كلماتي قادرةٌ على مساعدتها بعد كلّ هذا الوقت من المرض".

قال السّاحر الأعظم بذلٍ وانكسار: "عليكَ أن تحاول".

بصعوبةٍ بالغة أشاحت بهجة بوجهها، لتلقي نظرةً على وجه الذي تسمع صوته، كان منتصباً أمامها مثل شجرةٍ موسميّةٍ غارقةٍ في الأغصان والمطر، كانت عيناه كنجمتين في كبد السّماء، وكانت عيناها بحـــيرتين جميلتين تفوقان جمال بحره ذي اللّجّة الجوهـــر،

والسّاحل الذّهبيّ. نظراتهما الحارقة، أذابت جليد قلبه، وقهرت لعنة روحه، طفق قلبه يدقّ بقوّة ناقوسٍ نحاسيٍّ كبير، كاد قلبه ينخلع من صدره، لم يُصدّق أنّه يسمع وجيب قلبه بعد آلاف السّنين من اللّعنة، وجيب قلبه طغى على صمت المكان، انتفضت بهجة لهذا الصّوت الذّي تفتقد عزيفه منذ آلاف السّنين، وقالت: "أبي . . . إنّي أسمع وجيباً، وجيباً يخصّني أنا بالذّات".

قال السّاحر الأكبر بتوتّرٍ وفزع: "لا بدّ أنّها تهذي، لعلّها تعاني سكرات الموت، هيّا يا ملك القلوب اشفها بكلماتك، كي أفكّ لعنتك"

ابتسم ملك القلوب من جهل السّاحر الأكبر الذّي لا يعرف أنّ لعنته فُكّتْ دون إرادة صانعها، اقترب من أذن الأميرة التّي شنّفت أذنيها لكلّ كلمةٍ من ملك القلوب، وهمس بكلمتَيْن . . . فأشرق وجه بهجة، وفاض حيويّةً ونضرةً، وبدأ قلبها وجيباً لا يعرف نهاية . . .

واختفت بهجة وقلعتها، وفي لمح البصر وجد نفسه من جديد في كهفه، اختفى كلّ شيء إلاّ عرشه، وذكرى بهجة، لليالٍ ردّد المكان وجيب قلبه، كان ملكاً للقلوب ،ولكن ليس لقلبه الذّي أصبح ملكاً لبهجة، لزمنٍ طويل لا يعرف مقداره انشغل في مشاكل القلوب، وفي تمائمها السّحريّة، وكان ينتظر . . . ينتظر ماذا؟ لا يدري بالتّحديد، ولكنّه ينتظر.

وجاءت السّحابة السّوداء، كان مُثاراً وكأنّه ينتظرها، كان السّاحر الأكبر في قمّة غضبه، رمقه بنظرةٍ شزرى ،قال: "هيّا معي . . ."

حزم ملك القلوب كلّ ما يملك، وتهيّأ سريعاً وكأنّه ينتظر هذا الأمر.

في لمح البصر، كان في قلعةٍ قاف أمام بهجة المسجّاة على سريرٍ بلّوريٍّ شفّاف، كانت في حالةٍ من الضّمور والنّحول والشّحوب لا تختلف عمّا هو عليه، قال السّاحر الأكبر غاضباً، وهو يشير إلى بهجة: "انظر ماذا فعلت بها كلمتاك اللّعينتان، هيّا خذهما، وأعدها إلى سابق عهدها".

- قال ملك القلوب بتلعثم: "ولكن؟!"
- قال السّاحر الأكبر مقاطعاً بغضبٍ: "بدون لكن، هيّا خذ كلمتَيْك، وإلاّ حوّلتُكَ إلى رمادٍ في مدفأة حقيرة . . ."

حار ملك القلوب في ما عليه أن يفعل، اقترب خطوتَيْن من سرير بهجة، سمع وجيب قلبها يتعالى ويقوى، مسح بظاهر يده دمعةً تنزّت من عينها، وانحدرت على خدّها، فتحت عَيْنَيْها بصعوبةٍ، وقالت بفرحٍ وراحةٍ: "ها قد جئت؟"

هزّ ملك القلوب رأسه مؤكّداً ما ترى، قال السّاحر الأكبر بغضب: "الآن خذ كلمتَيْكَ اللّعينَتَيْن".

اقترب ملك القلوب خطوةً أخرى وأخيرة من سرير بهجة، بات ملاصـــقاً لها تماماً، اقترب من أذنها، وكاد يهمـــس بكلمتيه، ولكنّ

السّاحر الأكبر قاطعه قائلاً: "قل كلمتَيْكَ اللّعينَتَيْن بصوتٍ مرتفع، ولا تهمس بهما همساً".

أدرك ملك القلوب من حدّة صوت السّاحر أنّه يعني كلّ كلمةٍ يقولها، وأنّ ليس من الحكمة مخالفته أو إغضابه، قال بصوتٍ عوانٍ بين الهمس والتّصريح: "أنا أحبّكِ . . ."

اشتاط السّاحر الأكبر قائلاً: "يا لعين!! أهاتان هما كلمتاكَ اللّعينتان اللّتان أذابتا قلب وصحّة ابنتي؟"

لم يأبه ملك القلوب لكلمات السّاحر الغاضب، من جديد، قال بصوتٍ أكثر وضوحاً ودقّة: "أنا أحبّكِ".

- قالت بهجة التّي أورق شعرها زهوراً، ودبّت الحياة في أوصالها الميّتة: "وأنا أحبّكَ . . . يا ملك القلوب . . ."

ذاب قلب ملك القلوب سعادةً ، وأَوْرَقَت القلوب عشقاً وسعادةً ،وكُتب في سِفْر السّحر الأعظم كلمات حبٍّ سحريّة جديدة . . .

الطّيران على ارتفاع ١٠٠٠ دقّة قلب

تحبّ الطّيران، تحبّ أن تأخذ شهيقاً عميقاً، ثمّ تغمض عَيْنَيْها، وتنزلق في الهواء، تنزلق فيه كسمكةٍ منسربة بأجنحةٍ من نور، تواجه الرّيح بجسدها المشروخ وعَيْنَيْها المستكينَتَيْن، وابتسامتها الغارقة في الهواء، تفكّر كثيراً في أن تقابل الرّيح بنظرةٍ متحدّية تشمل الفضاء والأرض وطيورهما، تتمنّى أن ترصد من علٍّ تكوّر جسدها، واستسلام عضلاته للرّيح الخاضع لجبروت الجاذبيّة، تزداد دقّات قلبها، تعجز عن تحمّل فكرة التّحديق في جبيبن الأرض، ليته كان يمسك يديها، ليت نظراته المنكفئة في الكتاب تطالعه بلا ملل تمتدّ أيدٍ تمسك بيديها، وتنطلق معها في الفضاء . . . ليته يفعل ذلك، ليته، وتسقط من أعلى قمّة . . . وتهوي بسرعةٍ جنونيّة إلى الأرض، يتقلّص قلبها الصّغير ،ويستسلم للانسحاق . . .

تستيقظ مرعوبةً، غارقةً في حبيبات العرق التّي تغزو جبينها النّاصع، وجسدها الصّغير، تطالع ما حولها برعبٍ سرعان ما يتحوّل

إلى ارتياح، تدرك أنّ حلم يقظتها ونومها ما زال يطاردها، ترتخي عضلاتها المتوثّبة، بالتّدريج يختفي وجيب قلبها من أذنيها، تتزلق في منامتها الورديّة بارتياح، تيقن أنّها الآن في مأمن من كابوسها اللّعين، تتمطّى على أمل أن تهب جسدها راحةً ما، لكنّ تيبّس جسدها، وانشراخه دون هواها يعيق حتّى الاستلقاء المرجوّ، جسدها بجلّه ينحني بانكسار إلى اليمنة، مع تراخٍ وقصرٍ واضحين لصالح الشّقّ الأيمن.

يرتكز جسدها النّحيل على قدمها اليُسرى دون اليمنى التّي تقصر دون أختها سنتيمترات كثيرة، وتبقى متدلية بتراخٍ في الهواء، لا يمكنها أن تسير إلاّ إذا ضغطت بعزم كفّ يدها اليسرى عليها، فتدفعها إلى الأرض، مكوّنةً انحناءةً كسيرةَ نحو الأرض، تسير أو لنقل أنّها تحجل، يرهقها المشي كثيراً؛ لأنّ القليل منه يعني كيلوغراماتٍ عديدة ترتكز على قدمٍ واحدة ، تتوازن بفضل عامود فقريٍّ يعاني الكثير من المشاكل في فقراته المنزلقة والمضغوطة في أكثر من مكان.

ولكنّها لا تزال تحبّ الطّيران ،وتحبّ خلجاته الهادئة العميقة، وتحبّ ذلك البيت الخشبيّ الصّغير الذّي قصف سعادتها، وكوى جسدها الطّفوليّ دون رحمة، كانت طفلةً شقيّة، تحلم بالنّور والطّيران، ألحّت على أهلها أكثر من مرّةٍ كي يدفعوا بها إلى أيّ نادٍ قد يمكّنها من التّحليق الشّـــــراعيّ، ولكنّ أمّها أصرّت على الرّفض؛

لخشيتها عليها، وكانت تذكّرها دائماً بالمصير المأساويّ الذّي لاقاه الحالم الأسطوريّ بالطّيران عبّاس بن فرناس ، كانت تمزح قائلة: "من يحلّق في السّماء تموت أمّه حزناً" لتثنيها عن الطّيران، لكنّ الأجنحة الشّفافة ذات البريق السّماويّ بقيت تناديها دون فتور، واستجابت لها، تسلّقتْ أعلى شجرةٍ في مزرعة بيتها، سارت بحذرٍ شديد على إحدى أغصانها الوارفة، كادتْ تنزلق أكثر من مرّة، وأخيراً انتصبت على غصنٍ يُطلّ على منحدر القرية، راودتها رغبةٌ جارفة في أن تُطعم جسدها للرّيح، وأن تنزلق في طيّاته البلّوريّة، لكنّ صراخ أمّها وتوسّلات أبيها، وتحذيرات الجدّة، حوّلت رغبتها إلى زبدٍ هوائيّ يغلّفه خوفٌ طفوليّ لذيذ.

قالت لها الأمّ بتضرّع: "إيّاكِ يا حبيبتي أن تتحرّكي، الزمي مكانكِ".

قالت بنبرةٍ طموحةٍ متحدّيةٍ: "ولكنّني أريد الطّيران".

قالت الأمّ بنبرة ترجٍّ مفعمة بشهقاتٍ وزفرات: "ليس الآن في ما بعد . . ."

قالت: "ولكنّ الرّيح مناسبةٌ الآن للطّيران".

قال الأبّ الذّي طفق يتسلّق الشّجرة، وكرشه الصّغير يضطرب مرّةً ويلتصق مرّةً أخرى بلحاء شجرة السّنديان العتيقة: "لا تتحرّكي، اثبتي في مكانك حتّى أنزلكِ . . ."

ردّت وهي تهيّئ نفســـها لدفعة بكاء طفوليةٍ ســـــخيّة يعلوها عنادٌ

وتململُ: "ولكنّي أريد الطّيران . . ."

كان من المتوقّع أن تُرسل الشّجرة جسدها قطعاً مكسّرةً، لكنّ ذلك لم يحدث، وأُنزلتْ قسراً عن الشّجرة، وهي تبكي، ويداها لا تزالان مشرّعتين طوليّاً استعداداً للطّيران، وبعد تعنيفٍ طويل، ونصائح أطول، استقرّت العائلة على تسويةٍ ترضي جميع الأطراف، فقد سُمح لها أن تراقب طيور السّماء دون أن تطير، واشترطتْ عليهم في سبيل الالتزام بذلك أن يبنوا لها كوخاً خشبيّاً صغيراً معلّقاً على أعلى شجرة سنديان، وبعد أخذٍ وردٍ، نزلت العائلة على رغبتها الطّفوليّة المشرّعة في أرض الأحلام.

وكان الكوخ الخشبيّ الصّغير المعلّق في الهواء، بناه والدها بدقّةٍ واهتمام لكي تكون ابنته في مأمنٍ، وتحقّقت أمنيتها الصّغيرة، كانت طائرةً ليلَ نهار، وهي في كوخها تشعر بأنّها حرّة طليقة في السّماء، كان في جوارها الكثير من الجيران، فغصون السّنديانة الممتدّة الوارفة تزخر بأعشاش الطّيور، كانت تعرف جيرانها العصافير فرداً فرداً، وتعرف موعد فقص بيوضها، وتراقب سلوك فراخها، وتسمح لنفسها أحياناً بتقديم بعض الدّيدان وجباتٍ إضافيّةً للفراخ الصّغيرة، وقد لاحظت أنّ للفراخ سقسقةً خاصةً في طلب طعامها، أصغت لها طويلاً، ثمّ قلّدتها ببراعة. وكادت تطير فرحاً عندما عرفت أمّها معنى هذه السّقسقة، وقدّمتْ لها الطّعام كلّما أقبلت عليها مسقسقةً طامعةً في الطّعام.

ولكنّ الكوخ الخشبيّ كسرها، بل كسرتها شجرة السّنديان التّي استسلمت أغصانها، وهوت إلى الأرض حاملةً معها الكوخ ونور، الكوخ سلِم إلاّ من كسورٍ صغيرة، أمّا هي فقد تحطّمت إلى الأبد.

حلمت طويلاً أنّها تطير بسعادةٍ وبخفّة، ولكن عندما استيقظت من غيبوبتها، وتفرّست الأجهزة الطّبيّة التّي تحاصرها في المستشفى، وبعد أن تحرّرت من الجبص والدّعائم عرفت أنّها قد تحطّمت إلى الأبد، وأيقنت أنّ السّير الطّبيعي بات أمنيةً ضائعةً فضلاً عن الطّيران الذّي بات محرّماً، وباتت قعيدة الفراش، أسيرة البيت، إلاّ من لحظات تسرقها من البيت الخشبيّ الذّي انغرس من جديد بين أغصان السّنديانة بناءً على رغبتها التّي ما استطاع والدها أن يردّها لطفلته المهشّمة.

عاتبتْ طويلاً شجرة السّنديان التّي استسلمت للانكسار، وقدّمتها للعجز، وعندما طال صمت الشّجرة كرهتها، حتى أنّها فكّرت في قطعها انتقاماً منها، ولكنّ جيرانها الطّيور كانوا خير شفيعٍ لموطنهم الشّجرة، لا سيّما أنّهم قدّموا كذلك ضحايا من فراخهم في كارثة تحطّم أغصانها، وتحطّم الكوخ الخشبيّ.

كادتْ تنسى حلم الطّيران، كان يكفيها عبء تجنّب النّظرات الفضوليّة التّي ترقب سيرها الخرافيّ، كانت النّظرات الموزّعة بين السّخرية والشّفقة والفضول كافيةً لقتلها، ولكنّها صمتت بشموخٍ بازٍ يسكن السوامق على الدوام، لسنين طويلة جرّت شقّها الأيمن الموتور

بعظامه ، درستْ باجتهاد، فقد كان علمها موافقاً لحبّها لجيرانها القدامى، درست الهندسة الزّراعيّة، وتخصّصت بالإنتاج الحيوانيّ، وغرقت في عالم الطّيور الذّي تحفظ عن ظهر قلب لغته وسقسقته اللّذيذة . . .

وكادت تنسى كلام البشر، إلاّ من بعض المفردات، لكنّ ظهوره السّعيد في حياتها جعل عندها رغبةً ملحّةً لقول كلمة بعينها، كلمةً واحدةً تلخّص تاريخ البشريّة جمعاء، كلمةً جامعةً لكلّ تاريخ التّمنّي والاشتهاء والرّغبة، كانت تريد أن تقول "أحبّك . . . أنتَ بالذّات" فكّرت طويلاً في تهجئة هذه الكلمة بلغة العصافير، وما اهتدت لذلك.

كانت تمضي السّاعات قبالته على طاولةٍ بعيدةٍ عنه في مكتبة الجامعة، كان يأتي قبلها، ويبدو أنّه كان يغادر بعدها؛ لأنّها كانت تغادر قبله باستمرار، كان هادئاً كليلةٍ تسبق عاصفة، في عيْنَيْه بريقٌ لا يعرف معناه إلاّ من جرّب متعة الطّيران.

تعمّدت طوال أشهرٍ عديدة أن تدخل من الباب الجانبيّ للقاعة، وهكذا تحرم الهادئ الذّي يجلس بعيداً من إمكانيّةِ مراقبةِ جسدها الذّي تجرّه على مهل، ثمّ تنزلق سريعاً في خطوةٍ واحدةٍ في أقرب كرسيّ، وبذلك تضمن أن لا تتأذّى ذكورته بمشهد أنوثتها المشروخة، تخيّلت كلّ اللّقاءات المتمنّاة، تصوّرت كلّ الكلمات التّي يقولها ذكرٌ لأنثى، نســـــجت في ذهنـــها كلّ الإجابات التّي تجـــــيب أنثى ذكراً بها،

ولكنّها أبداً لم تفلح في وضع تصوّرٍ لردّ فعله عندما يعرف حقيقة جسدها المهصور. لكن سرعان ما تلهي نفسها عن هذا القلق الملحّ بسقسقةٍ سعيدة لحّنتها وَفْق كلمة: أحبّك . . .

كانت تكفيها متعة مراقبته طويلاً، لكنّه كان يريد أكثر من متعة المراقبة على ما يبدو، هذا ما فهمته من تلك الزّهرة الحمراء التّي وجدتها على المنضدة التّي اعتادت الجلوس إليها، عندما أدنتها من أنفها لتشمّها لمحت ابتسامته وإيماءة عَيْنَيْه فأدركت أنّه صاحب الزّهرة العاشقة.

فكّرت طويلاً وهي تقلّب الوردة الحمراء لليالٍ طويلة في جسدها، وتخيّلت أنّه قد رسمها بقدٍّ يشبه جمال قدِّ الزّهرة، فاغتمّت وهي تتحسّس جسدها الضّامر الملتوي،ثم توقّفت عن التفكير،وإن لم تتوقّف عن التأوّه.

لكنّه قرّر أن يأخذ الخطوة الأولى وإن خشي أن تكون الأخيرة ، اقترب منها، لم تشعر به إلاّ وهو يُلقي عليها تحيّةَ المساء بصوتٍ رخيمٍ حالم، كادت الفرحة تخنقها، لكنّ الدّهشةَ المشوبةَ بالوجل ألجمتها، لقد كان من نزلاء المقعد الرّماديّ، لقد كان مُقْعَداً بل أسيراً في مقعدٍ متحرّك، قطع صمتها ورفيف دهشتها بقوله: "أنا مُقْعَد منذ سنوات بسبب حادثٍ مؤسف، واحتمالات الشّفاء معدومة".

ابتسمت على وجلٍ، وقالت له وعيناها مغروستان في الطّاولة التّي أمامها: "أتحبّ الطّيران؟"

مدّ يده ذات الأديم المشعوعر نحو ذقنها، ورفعه لتصبح عيناها قبالته تماماً، وقال: "أكثر ممّا تتخيّلين".

. . . وطالت القصّة . . . أو قصرت . . . بالتّحديد أصبحت بطول وقفتهما بالقرب من جرفٍ عالٍ، استطاعتْ منه أن تريه سنديانتها القاسية، وأن يريها المستشفى الذّي رقد فيه أشهر بعد أن أُقعد، حدّثها طويلاً، فحدّثته مدّة أطول ، سمعها، وسمعته، وأحياناً لم يسمعها، وفي بعض المرات لم تسمعه . . . كان قلب كلٍّ منهما يخفق بمعدّل ١٠٠٠ دقّة في الدّقيقة .

استند على كرسيه الرّماديّ وعلى مساعدتها لينتصب بصعوبةٍ، ثمّ تهالك في حضنها الصّغير، الذّي كان أضعف من أن يحتمل جسديهما ، انهارا ضاحكين على الأرض، قرب الجرف تماماً . . . غرقا في عينيّ بعضهما ، أومأت بخجل، ثمّ سقسقت ،وقالت: "أحبّكَ". سقسق على منوال ما فعلت وقال: "أحبّكِ . . ."

انتصبَ من جديدٍ بمساعدتها بصعوبةٍ بالغةٍ ، أشرعا يديهما التّي أنهكها التّعب ليطيرا، حدّقا في البعيد ، حيث مسقط الشّمس، تحدّيا الجاذبيّة والرّيح ، أخذا نفساً عميقاً، ملأ رئتيهما بشيءٍ لذيذ اسمه الحبّ ، وطارا . . . طارا على ارتفاع ألف دقّة قلب . . .

صديقي العزيز

- ". . . "
- "ولكنّك صديقي العزيز . . ."
- "وسأبقى دائماً كذلك، هاكِ مفتاح بيتي، ثقي دائماً أنّ المكان سيكون بيتكِ أكنتُ فيه أم لم أكن".
- "أنا آسفةٌ لأنّي لستُ بمثل روعتك، أنتَ تستحقّ قلبي ليبذل تحت قدميك، ولكن . . . الحقيقة إنّ القضيّة ملبسة قليلاً".
- "أنتِ لا تحبّيني أليس كذلك؟"
- "نعم . . . أقصد لا . . . ليست القضيّة هكذا، أنا أحبّكَ فقط صديقاً . . . و"
- "لا عليكِ، عُدّي أنّ شيئاً لم يكن".
- "ولكن . . ."
- "لا تقلقي سأكون على ما يرام".

. . ولكنّه صديقي العزيز . . . أنا أحبّه ..نعم أحبّه . . . ولكن

ليس بطريقته . . .

للمرّة العاشرة أدارت قرص الهاتف لتّتصل به، لكنّها لم تجده، من طبعه أن يختفي هكذا دون سابق إنذار، ومن ثمّ يظهر مرّةً أخرى أيضاً من دون سابق إنذار، أين يختفي؟ لا أحد يعرف، ماذا يفعل؟ لا أحد يعرف." لستُ أبالي! فله مطلق الحريّة في كلّ ما يفعل ، ولكنّي قلقةٌ عليه فهو صديقي العزيز". قالت في نفسها المشحونة بالقلق عليه.

" لسببٍ ما اختفى دون سابق إنذار، بالتّأكيد ليس لموقفي من مشاعره أيّ علاقةٍ باختفائه، فهو قويّ، لا يُخشى عليه، لنقل إنّه أقوى رجلٍ رأيته في حياتي، يستطيع أن يحتمل كلّ العذاب، دون أن ينبس ببنت شفة، أو تنهيدة احتجاج، يبتسم وكأنّ شيئاً لم يكن، ودمعةً سخيّةً تتلألأ في عمق محجر عَيْنَيْه، ولا مزيد!!ثم يولّي قافلاً."

من جديد تقلّبتْ في فراشها، وقالت:"، ولكنّي أحتاج إليه، أحتاج إلى عونه، إلى مساعدته، أحتاج إلى كلماته تضع حلولاً لأشواقي، أحتاجه ليؤازرني وأنا استقبل حبّاً جديداً،احتاجه لينزل معي إلى الأسواق لأشتري هديّةً لرجلٍ ما أشتهي أن يدخل إلى عالمي،أحتاجه وأنا أودّع حبّي المأمول، هو الوحيد الذّي يحتضنني باكياً لبكائي، حزيناً لأحزاني، يضمّني دون أن يوبّخني، دون أن يلومني، يداعب شعري، ويقول: "يا لكِ من صغيرة . . ."

فأحتجّ بنبرتي المعهودة،التي ماانفكّ يقلّدها ساخراً: "أنا لستُ صغيرة . . ."

يبتسم: "بل صغيرتي أنا".

دَلَفَتْ إلى شقّته، رائحة سكونها تقول إنّ أحداً لم يطأها منذ أيّام، لأوّل مرّةٍ تدخل شقّته من دونه، لشقّته رائحة خاصّة، هي تؤمن أنّ للبيوت روائح خاصّة تماماً كما للأشخاص روائح خاصّة وفارقة، رائحة بيته تشبه رائحته تماماً، خليط من التّفاح البرّيّ، والعطر الفرنسيّ الفاخر، ورائحة الماء العذب، وخليط عجيب من النّظافة والتّعرّق، فهو من أشدّ النّاس هوساً بالنّظافة، وأكثرهم تعرّقاً، ابتسمتْ، وعجبت من أنّها تحفظ تفاصيل رائحته دون أن تدري بذلك.

ولكن أين هو؟ جلستْ إلى أريكته المفضّلة، وشربت كأس عصير من النّوع الذّي يفضّله، ثمّ قررت أن تغادر الشّقّة، فكّرت للحظات في أن تكتب رسالة تتركها له على طاولة مكتبه، تخبره فيها بحاجتها الماسّة إلى المال، وتطلب منه قرضاً صغيراً ، إلى أن تصلها دفعةً من تاجر العاصمة الذّي تتعامل معه، ولكنّها ضربت صفحاً عن ذلك، فعلى الرّغم من حاجتها الحقيقيّة إلى المال، إلاّ أنّها هذه المرّة بالذّات، ودون سابق إنذار، وبعيداً عن أنانيّتها المفرطة، وشذوذاً عن كلّ رغباتها التّي تدور حول حاجاتها ومصالحها فهي في حاجةٍ إليه، دون الحاجة إلى مساعدته،لأنّها تشعر بأنّه في حاجةٍ إليها،

تريد أن تقف قبالته، ولا تعرف أيّ الكلمات ستقول له، لعلّها ستقول له كلماتها المعتادة التّي تقولها له مازحةً كلّما شعرت أنّها أغضبته، "أتحبّني؟"فيجيبها بنبرةٍ ساخرةٍ لا تنجح في إخفاء صدق مشاعر صاحبها: "أموت فيك".

أقفلت الشّقّة بحزن من يشيّع جنازة، بدا مخرج العمارة بعيداً جدّاً، على مشارفه وقفت، وعدّت النّقود القليلة المتبقّية في جيب بنطالها الكتّانيّ، كانت قليلة، ولكن تكفي لشراء شطيرة وبعض الحلوى، وللعودة بسيّارةٍ مأجورة إلى بيتها، ولكنّها تكفي كذلك لقطع تذكرةٍ في القطار لجولةٍ في ضواحي المدينة، وبذلك تستطيع أن تسرّي عن نفسها، وأن تزجي الوقت لحين ظهور الصّديق المختفي، عندها الكثير من الأصدقاء والمعارف بل والأعداء والأقارب والمشاريع والأماكن لتزجي الوقت فيها، لكن في هذه اللّحظة يلحّ على ذهنها سؤالٌ واحدٌ ألا وهو:" أين هو صديقي العزيز؟" تهزّ كتفيها غير مبالية، "ليكن أينما أراد" قالت بتأفّفٍ وضيق، لكنّ قلقاً تشرّب إلى نفسها، وقال: "ولكن أين هو؟"

كانت تريد تذكرةً للتّجوّل في المدينة، لكنّها وجدتْ نفسها وَفْقاً لطبيعتها المستهترة وغير المبالية، تقطع تذكرةً إلى أقصى شمال الولاية، التّذكرة استنزفت كلّ ما معها من النّقود سوى بعض الفكّة التّي لا تكفي لشراء شيء خلا العلكة الرّخيصة، والكعك المحلّى، فكّرت قليلاً في الورطة التّي وقعت فيها، ولكن ذهنها كان مشـــغولاً

في قضيّةٍ واحدة. "أين هو؟" قالت من جديد بتأفّفٍ وضجر.

كانت الرّاكبة الوحيدة في المقصورة، ثمّ انضمّ إليها عجوزٌ مع حفيده الصّغير، كانت رحلةً طويلة وطويلة وطويلة، هكذا ردّد الحفيد الصّغير متبرّماً ومحتجّاً أمام جدّه، أمّا هي فكانت تشعر أنّها وحيدة، لم تكن تعلم أنّ لصديقها هذا الحجم في حياتها، لا تنكر أنّه إنسانٌ رائع، ولا تستطيع أن تنسى أنّه هو من دعمها ماديّاً ومعنويّاً وتوسّط لها بعلاقاته المحدودة لكي تقيم معرضها الأوّل، وهو أيضاً من قام بشكلٍ أو بآخر بالتّوسّط لها عند أحد أكبر دور العرض في العاصمة لكي تعرض لوحاتها للبيع، وهو من كان إلى جانبها عندما كُسرت يدها في رحلة الجبل، كما أنّه من سدّد فاتورة إيجار شقّتها عندما ساءت ظروفها المادّيّة، وهو من كان يحقّق لها الأمن الماديّ بمساعداته التّي لا تعرف حدوداً، صحيحٌ أنّها تسدّد له كلّ ديونه، لكن ذلك لا ينفي أنّه ملاكها الحارس في كلّ الأوقات، وهو صديقها الذّي لا تستغني عنه أبداً . . .

وقف القطار في أكثر من محطّة، في كلّ محطّةٍ بين اليقظة والصّحوة، تمنّتْ أن يُطلّ بقامته الصّغيرة، وبيديه الدّافئتين، ليقفل باب المقصورة، وليضع سترته على كتفيها كعادته؛ لتشعر بشيءٍ من الدّفء، لكنّه لم يُطلّ . دلف أكثر من رجل من طوال القامة، وأقفلوا باب المقصورة خلفهم، وتابع القطار رحلته دون أن يأتي، هي تحبّ الرّجال أصحاب القامات الفارعة والمناكب العريضة،تريد رجلاً يشبه

أبطال الأفلام، له ابتسامة سحريّة، وشعر مموّج كقطع الذّهب، تريد هذا النّمط من الرّجال مع أنّه نمطٌ كسر قلبها المرّة تلو الأخرى دون أدنى مبالاة، وليست معنيّةً بالأجساد الهزيلة، والملامح التّي تخلو من سحرٍ وإثارة، وإن كان صاحب تلك الملامح رجلٌ يحبها جداً،واسمه صديقها العزيز.

ولكنّ صديقها يملك ابتسامة هادئة، "يجبّ علي أن أرسمه يوماً ما" قالت في نفسها. نظرت من نافذة المقصورة لم ترَ الكثير بسبب ظلام اللّيل وسرعة القطار، تعجّبتْ من أنّها لم ترسمه، مع أنّها تعرفه منذ سنواتٍ طويلة، وعلى الرّغم من أنّها ترى في جُلّ كلماته رغبةً جارفة في أن تدعوه لرسمه، لقد رسمت كلّ الرّجال الفاتنين الذّين عرفت، ولكنّها لم ترسمه هو بالذّات، حتّى ذلك المهاجر الأشقر رسمته في أوّل أسبوع من معرفته، وها هو قد هرب وسرق معه اللّوحة التّي رسمته فيها، بالتّأكيد أنّه لم يسرقها رغبةً فيها، ولا نكايةً بها، لكن لا بدّ أنّه فكّر في بيعها، ولكنّها تحبّ تلك اللّوحة، وتكره أن تُسرق لوحاتها، ولكن من يبالي؟ حتّى صديقها العزيز لم يبالِ بموضوع سرقة اللّوحة، ولكن ماذا عساه يفعل في سبيل ذلك؟"لا شيء بالتّأكيد" قالت وهي تبرم شفتيها القرمزيّتين.

يا لذلك المهاجر اللّعين! لقد أحبّته فعلاً، ولكن كالعادة خيّب آمالها، متى ستظفر برجل أحلامها الذّي يعوّضها عن كلّ انكساراتها وعن طــويل انتظارها؟ لعلّــه لن يأتي أبداً، وأين هو المــحبّ

الذّي وُجِدَ ليعطي ويحبّ ويعشق دون حساب، لعلّه فقط في أذهان المراهقات .

يبدو أنّه عالمٌ مجنون، لا سيّما صديقها العزيز، لقد جُنّ دون شكّ ليتهجّم على شقّة المهاجر اللّعين ،ويهدّده بالسّلاح ليختار بين أمرين: إمّا أن يُسعدني، وإمّا أن يختفي دون رجعة.وماذا اختار المهاجر؟ اختار بالطّبع أن يختفي فهذا يتوافق أكثر مع خطّة اللاّ التزام التّي ينتهجها، ولكن لماذا يفعل صديقي العزيز ذلك؟ "بالطّبع لأنّه صديقٌ مخلص" أجابت نفسها القلقة.

حركة أمعائها ذكّرتها بحاجتها للطّعام، لكنّ ما في جيبها لا يكفي لشراء شطيرة، ربما كان ينبغي عليها أن تقبل بأخذ قطعةٍ من حلوى الجبن التّي قدّمها الطّفل الصّغير إليها بناءً على إيعازٍ من جدّه.

"لو كان صديقي موجوداً لما هان عليه أن أبقى جائعةً، اعتدتُ على أن أطرق بابه عند كلّ حاجةٍ، لأجده مبتسماً هادئاً قد حضّر لي ما جئتُ لطلبه، وكأنّه كان في انتظاري، كان خطيباً لصديقتي المفضّلة، التّي اختارته في غمرة شقاوة المراهقة، ثمّ أورثتني إيّاه وآلامه عندما قرّرت أن تتزوّج رجلاً ثريّاً ملائماً لطموحاتها، ومنذ تلك اللّحظة غدا ملاكي الحارس، وصديقي الاستثنائيّ."

مدّ جامع التّذاكر يده إلى كتفها، ولكزها بلطف قائلاً: "لقد وصلنا يا سيّدتي إلى المحطّة الأخيرة، انتفضت بخجل، جمعت أشـــــاءها القليلة بسرعة وهبطت على عجل، من جديد غادر القطار

المحطّة، كانت وحيدة، في مكانٍ لا تعرفه، خلا بعض المسافرين الغرباء عنها، تساءلت أنّى لها بنقودٍ لتعود من حيث جاءت ؟ سبّت في داخلها تهوّرها، وقراراتها غير المدروسة، استأذنت بعد تفكيرٍ مطوّل الشّرطيّ المناوب في المحطّة لتجري اتّصالاً واحداً لا غير، وافق على مضض، ثم بعد بضع رنّات، جاء صوت صديقها، فرحت به كفرحِ من وجد كنزاً ، قالت له: "أين كنت مختفياً طوال الأيّام الماضية؟"

– قال بفخر فارسٍ أسطوريّ: "لقد اقتفيتُ آثار ذلك المهاجر اللّعين إلى أن اهتديتُ إليه".

- قالت بدهشة: "ولكن لماذا؟"

- "كي استردّ منه اللّوحة التّي سرقها منكِ، وها قد أعدتها معي".

صمتتْ بتعب مهرٍ برّيّ أنهكه الهرب، وقالت: "أنا مفلسة في محطّة ١٠٧، في شمال الولاية، هل يمكنكَ أن تأتي لاصطحابي؟"

- قال بحماس: "بالتّأكيد، انتظريني . . ."

انقطع الخطّ، ردت السّمّاعة المجذوبة إليها عبر سلكٍ طويل إلى شرطيّ المحطّة، كان يبدو من نظرة عينَيْه أنّه راغبٌ في ثرثرةٍ يقطع بها ساعات المناوبة الطّويلة، وكي لا يضيّع الفرصة قال مباشرةً: "هل هو آتٍ؟"

فاجأها السؤال، وأجابت تلقائيّاً: "نعم . . . هو آتٍ".
قال بفضول: "أهو زوجك؟"
قالت وهي تنزلق في الكرسيّ المجاور متعبةً جائعةً، ولكن تملك يقيناً يقول إنّ الحبيب المنتظر هو صديقها: "لا . . . هو حبيبي . . . أقصد . . . هو حبيبي العزيز . . . وهو آت".

اللوحة اليتيمة

" إلى روح طارق العسّاف الذي ابتعله الماء ، ويتّم لوحته "

ثُبِتتْ على واجهة مخملية بارزة ، الأضواء المُسلّطة عليها أبرزت أحزانها ووحدتها ، كانت تقبع في صدر المعرض ، تواجه تماماً عينيّ كلّ من يدلف إلى القاعة ذات البلاط الرخامي والجدران المخمّرة بستائر مخملية خضراء ، حصلت على الكثير من الصور الفوتوغرافية من قبل مراسلي الصحف والمجلات ، كانت تراقب جموع الحاضرين بحزن خاص يناسب خطوطها السوداء التي تحاصر بقعاً لونية صفراء يتيمة في حدادٍ أسود .

كلّ لوحة من اللوحات التي كانت مصلوبة مثلها على واجهة مخملية نعمت بحشدٍ من الأصدقاء والمعارف ، وبابتسامة عريضة على وجه راسمها إلا هي ، فقد كانت وحيدة ، تفتقد جموعاً تحمل ابتسامة فوز ، وتفتقد بشكل خاص أنامل صغيرة رسمتها على عَجل. كانت لوحة تشـــكيليةً تحمل اسم " غوّار " ، رسمها طارق العسّاف ؛

ليكرّس بها أحلام الطفولة ، وليبرز فيها شخصية طفولته المفضلة المتجسدة في غوّار ، وليبث في ألوانها القاتمة خيالات حرمانه ، وليزرع في بقعها الصفراء أمل رجولته التي تقف على أعتاب طفولته ، لتدلف إلى جسده ، فتكونه رجلاً أسمر بازغاً من شابٍ نحيلٍ صغيرٍ ، في عينيه العسجدتين آلاف الطائرات الورقية ذات الأذيال المزركشة التي تطير فوق سطح بيته ، فيطاردها بعبثية وشقاوة هما أجمل ما في طفولته البريئة ، ثم يرسمها بألوان خرافية لا يملك أن يشتري أيّاً منها ؛ لأنّه لا يريد أن يكبّد أسرته المستورة الحال أيّ نفقات إضافية ، ولو كانت نفقات زهيدة، ليرسم بها لوحة صغيرة تفتح طاقة على أحلامه، وعلى موهبته المتفتحة كزهرة بريّة .

لم يذهب إلى مدرسة الفنون ، ولم يلتحق بأي نادٍ للرسم ، وقليلة هي حصص الرسم التي عرفها في مدرسته الحكومية القديمة ، ذات الأسوار المهترئة،لكن قلبه كان ينبوعاً للصور والألوان ، كان يتقن لغة الصّور،ويفكّ رموز وطلاسم الألون،يكفيه أن يبتسم ابتسامته الخجولة السمراء،ثم ينتحي زاوية لدقائق أو لساعاتٍ، قد يقعد القرفصاء،ويسند اللوحة إلى حضنه،وقد يركن بها إلى أيّ حائط قريب،ثم يشرع بكسي عريها بألوانه،حطوط تنبع من قلبه،ألوان تمتزج بمقدار ذوقه،ووفق غريزته التي جُبلت بقدرة عجيبة على تذوق الألوان،واستجلاء جمالياتها،واللعب بظلالها ودرجاتها،دقائق من العمل الهادئ المنقطع على ذاته ، ثم تكون اللوحة ، التي يطير فرحاً

بها ، تفخر طفولته الولود بلوحته المولود الجديد ، يـــدور بهـــا على أهل البيت ، يعرض عليهم سحنتها الجميلـــة ، يتبّـــرع بـــشرح معانيها ، ثم تلاقي مصيرها ، قد تكون هديـــة لـــصديق ، أو واجبـــاً مدرسياً لمعلم الفن ، أو مساعدة سخية لأحد أبنـــاء الجيـــران الـــذين تقصّر موهبتهم دون رسم لوحة تقتضيها حاجتهم في المدرسة أو في الجامعة أو حتى في مسابقة .

موهبته كانت كنزه الذي لا تمانع نفسه الطاهرة في مشاركة أي أحدٍ به ، بل يسرّه أن يطلع أيّ أحدٍ على وافر سحره ، وجلي إبداعه ، وإن كانت أمّه ترجو أن يكون نصيبه من الدراسة والاجتهاد والحياة والحظ بقدر نصيبه من ملكة الألوان ، ومن سلطان حضورها ، تتأمّل لوحاته ، تقرّبها من صدرها، تبتسم له ابتسامة عريضة تتربّع في قسماتها الهادئة ، ثم تقول مقيمةً إيّاها: " رائعة" . فيبتسم طارق الذي يرفض أن تضمه إلى صدرها ، وأن تقبّله ؛ لأنّه رجل ، والرجال في عُرف طفولته لا تقبّلهم أمهاتهم كالأطفال الصغار. يأخذ لوحته ، ويطير بها إلى سرب الأصدقاء، وما أكثرهم كانوا في ركب المدرسة ، وعرصات الحي وملعب كرة القدم الترابي الممتدّ على طول الشريط الغربي للحي الذي يسكنه !!

كان مصروفه قد نَفِدَ تماماً إلا من قروش معدودة عندما عرف من أحد الأصدقاء القليلين الذين يشترون الصحيفة اليومية أنّ مسابقة إبداعية للشباب على مستوى الدولة تفتح أبوابها للشباب الصغار مثله

للتقدّم لمسابقة الرسم بلوحات من رسمهم ، كان باب قبول اللوحات يكاد يغلق بعد يوم ، ولكن المبلغ المرصود للجائزة كان مبلغاً مستحيلاً وحلماً خيالياً لطفولته الجافة ، قدر أنّه بهكذا مبلغ كبير يستطيع أن يجود بعشرات الهدايا على عائلته ، ولا سيما على أمّه الحنون التي يجد حنان الدنيا في حضنها ، بل ويستطيع أن يشتري عدّة رسم كاملة ، ومن أجود الأنواع من محلات الرسم المتخصصة في العاصمة ، لكن عليه قبل دراسة خطة إنفاق الجائزة المأمول فيها أن يرسم اللوحة المناسبة ، وأن يوصلها بنفسه إلى المركز الثقافي الملكي ، حيث تسلّم اللوحات المشاركة وَفْق ما هو مكتوب في الإعلان .

ليلة واحدة كانت أمامه لرسم لوحته ، كانت ذاكرته مخزناً يعجّ بآلاف الصّور والخطوط ، ولكن المشكلة كانت في الألوان ، وفي القماش الذي يحتاجه ليرسم عليه ، ثم في الإطار الذي تشترط لجنة المسابقة الإبداع الشبابي أن يتوّفر للوحة ؛ ليعطيها الهيبة والشكل المطلوبين، لكنّه لم يكن يملك من الألوان إلا الأسود والأصفر ، ثم أنّ لا وقت عنده لتجهيز الإطار المطلوب ، فضلاً عن أنّ مصروفه الشهري كاد ينفد ، ولا يستطيع أن يكبّد عائلته المزيد من النفقات ، " إذن ما العمل؟! " حدثّ نفسه .

كانت عدّة رسمه تنحصر في الوقت الحاضر في لونين وقطعة قماش ، وخلا ذلك لا شيء ، حتى أنّه لم يكن يملك فرشاة رسم ، ولم يكن هناك وقت لينتظر الصباح ؛ ليمر علىّ معلم الرسم في

المدرسة ،ليستعير منه فرشاة رسم لحين إنجاز لوحته ، ثم إنّه لن يذهب غداً إلى المدرسة ، بل سيفرغ نفسه للذهاب إلى العاصمة ، وليدفع بلوحته المفترضة إلى لجنة مسابقة الإبداع الشبابي ، إذن الحلّ الوحيد هو أن يستعين بأنامله الصغيرة التي لوّحت الشمس أديمها لرسم لوحته المبتغاة ، وسيكون نجمه التلفزيوني المفضل غوار هو بطل لوحته .

في الصباح كان طارق عساف يحتضن لوحته بحرص من يحمل إيقونه مقدسة ، ويعدّ الدقائق في الباص الذي ما فتىء يتوقف ويسير ، يحمّل ركاباً وينزل آخرين ليسلم لوحته إلى لجنة المسابقة ، مسّد عليها بحنان بأنامله الصغيرة التي ما زالت ملطخة باللونين : الأسود والأصفر ، مع أنّه بذل جهداً كبيراً ليزيل أثرهما عن أنامله،لكن دون فائدة . كانت لوحته مغلّفة بورق زينة الهدايا ، وبدون إطار ، مخالفة بذلك أحد الشروط الرئيسية لقبول اللوحات الفنية .

لكن أمل الفوز كان رائده ، دلف إلى المركز الثقافي الذي يعجّ بمئات المتسابقين ممن هم في مثل سنه أو دونه أو أكبر مع ذويهم ؛ليقدموا أعمالهم الإبداعية في موعدها الأخير للجنة المسابقة، كان الدور كبيراً ،لكنّه انتظره مبتهجاً فخوراً بلوحته، التي تفوق بجمالها ودقتها كلّ اللوحات التي رآها في أيدي أصحابها .كان صف تقديم اللوحات قصيراً مقارنةً بصف الإبداعات الادبية كالقصة والخاطرة والخطبة والقصيدة، تحفّز الأمل في نفسه بعد أن قبل موظف المركز أن يستقبل لوحته التي تفتقر إلى أهم شروط المسابقة ، ووعد بأنّ يقدم

لها إطاراً إن فازت . " لعلّها تفوز " همس في نفسه التي تضج بالإثارة والتوقّد ، فهذه هي المرة الأولى التي يشارك فيها بمسابقة رفيعة المستوى كهذه ، شرع يتخيّل الفرحة المنتظرة إن فاز بإحدى الجوائز الثلاث المخصصة للرسم ، وإن كان يطمح للأولى منها ، كم سيكون مهماً عندها !! لا بد أنّه سيكون محلّ فخر أسرته ، ولا بد أنّ صورته ستغزو المجلات والصحف ، ليته قدّم لهم صورة شخصية أجمل من تلك التي قدمها لهم ،" ولكنّها تفي بالغرض ." حدث نفسه قائلاً من جديد.ولابدّ أنّ مدير مدرسته سيكرّمه أمام طابور الصباح ، ومن يعلم قد يضع له معلم الرسم الدرجة النهائية في الرسم تقديراً لفوزه ."لا بدّ أنّي سأكون نجم المدرسة والحي إن فزت. " أمّل نفسه قائلاً ، وهو يصفق يداً بيد متحمساً ، ويقطع الشارع المقابل للمركز الثقافي ، ليستقل أوّل باص يعود به إلى بيته .

انتظر يوم إعلان النتائج المعلن عنه في إعلان الترشيح بفارغ الصبر ، لكن لجنة المسابقة فاجأته بدعوته للمثول أمامها قبل زمن إعلان النتائج بأيام ، خفّ إليهم ، يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى ،" أستراهم سيبلغونني برفض ترشيح لوحتي بسبب عدم وجود إطار؟ " سأل نفسه . " هذا محتمل. " ردّت نفسه بقنوط . " ولكن لماذا لم يستبعدوها دون إبلاغي بذلك؟ فذلك من حقهم !" ســـأل نفسه من جديد .

" نحن لم نستدعك لنبلغك بقرارنا باستبعاد لوحتك " قال كبير

لجنة تحكيم اللوحات عندما سأله طارق عن سبب دعوته .

– "إذن لماذا طلبتم مثولي أمامكم " سأل طارق بفضول أحيا الأمل في قلبه .

–" لكي نخبرك أنّ لوحتك قد فازت بالمركز الأوّل، وأن عليك أن تسارع بإحضار إطار لها قبل موعد إعلان النتائج بشكل رسمي "

– " هل تعني أنّي الفائز الأوّل في حقل الرسم؟"

– هذا تماماً ما قلته ."

– " إذن أنا الفائز بالمركز الأول في حفل الرسم لهذا العام على مستوى المملكة."

– " بالطبع يا بني " قال المحكّم الأشيب ذو الابتسامة الواسعة ، وهو يرقب طارق يكاد يطير بجناحين ذهبيين انبتتهما سعادة من لدن عالمها الساحر .

غادر طارق المركز الثقافي، وسعادة الدنيا تحرسه ، فكّر في أن يوقف كلّ مارٍ في الشارع ، ليخبره بأنّه الفائز بالمركز الأوّل ، حدّث نفسه باحتضان سائق الباص ، وتقبيل مساعده الغليظ ، والزعق بأعلى صوته " أنا الفائز " . بصعوبة أحتوى فرحته، وسرّها لحين عودته إلى البيت .

كان ينوي أن يقسّم كلّ مدخراته المتواضعة بين رسوم رحلته المدرسية إلى الحّمة السورية، وبين نفقاته الشخصية في تلك الرحلة ، لكن نظراً للظرف السعيد الطارئ ، فقد بات من المؤكّد أنّ عليه أن

يقسّم مدخراته بين الرحلة ونفقاته، وبين ثمن ابتياع إطار جميل ومناسب للوحة غوّار ، التي ستتبوأ المركز الاول في الحفل الذي سيقام الأسبوع القادم ، وبهكذا تدبير سوف يحصل على الحسنيين :الرحلة والجائزة . إنّها المرة الاولى التي ينعم فيها بأمرين سعيدين في أسبوع واحد . وحال انتهائه من الرحلة ، سوف يهرول سريعاً بالإطار المطلوب إلى لجنة التحكيم .

هكذا كان مخطط طارق لجدولة نشاطات سعادته ، لكن القدر كان قد جدول نشاطاته بطريقة مختلفة فيما يخص طارق ، الذي قدّمه لقمة سائغة للموت ،فقد غرق طارق في رحلته المتمناة ، غرق في الحمّة السورية ، كادت السعادة تحمله على جناحين من نّور ، لكنّها لم تقوَ على إنقاذه من الغرق ، الماء طمح إلى احتواء روحه الموهوبة ، لم يبال بفرحته ، ولم يرحم انتظاره لحفل توزيع الجائزة ،وتجاوز بجبروت عن أحزان لوحته ، فيتّمها ، واختطف راسمها ، وأطعمه للموت ، واحتواه بلجته دون أن يشعر بأثمه، ودون أن يؤنّبه ضميره على قسوته ، أو على جبروت وجوده . وعاد الأصدقاء إلى بيوتهم بملابس مبلّلة ، وبصدور معرّاة ، ولم يعد طارق ، الذي تنتظره لوحة يتيمة في بهو المعرض الذي أُعدّ لعرض كلّ اللوحات المشاركة في المسابقة ، الفائزة وغير الفائزة ، لتشاركه فرحة الانتصار.

كلّ الوجوه حضرت إلا وجه راسم لوحة غوّار ، فقد غاب للأبد ، دون أن تعلم اللوحة المنتظرة أنّها قد تيتمت منذ أيام، كادت تسأل أمّ

طارق عن سبب غياب طارق ، لكنّها خرست وَفْقَ قاعدة الجمادات التي لا يّسمح لها بالكلام في حضرة الإنسان الناطق الواحد، لكنّها بحثت عنه في كلّ الوجوه ، تفرّست كلّ الشباب أصحاب البذلات الأنيقة ، كانوا يتشحون بالأسود الأنيق ليبرز رجولتهم القادمة في هيئة رسمية تناسب المناسبة السعيدة التي هم في صددها ، عطورهم العبقة ملأت الجو ،وأثارت رتابته ، وأبعدت عن ذهنها صورة طارق المتشح بأبيض الموت ، والراكن باستسلام لرمس صغير احتواه منذ أيام .

لم يطل انتظار اللوحة لطارق ، بل انتهى للأبد عندما أُعلن بحضور وزيرة الثقافة عن موت طارق غرقاً ، اختنق الجو بعبرات الحاضرين الذين شيعوا لوحة وصورة طارق بوافر الرثاء والحسرة ، ووقفوا جميعاً احتراماً لذكراه ، قارئين الفاتحة على روحه الطاهرة، حضنت وزيرة الثقافة أم طارق التي داهمتها موجة بكاء حارة كتمتها بصعوبة مذ حضرت إلى الحفل ، تمنىّ جميع الحضور لو أنّ في إمكانهم حضن أم طارق؛ ليطوقوا بأسى أحزانها ، وليحملوا منها قبساً من طارق . الشباب الموجودون في الحفل شعروا بخجل خاص من أجسادهم الغضّة التي تتمايل تيهاً بالبذلات الأنيقة أمام نظري أم طارق الموتورة بابنها .

جموع كبيرة من المستعبرين التفت حول لوحة طارق ، ترى فيها ما لم تره قبل دقائق ، حُزْنُ الحشد هيّج مشـــــاعر اللوحة اليتيمة التي

تهشّ بصمت لِراسمها الراحل المتشح بالأبيض، وتحنّ بشكل خاص إلى أن يدسّها تحت إبطه ، وأن يغادر بها المكان شأنها في ذلك شأن اللوحات الأخرى التي سُلّمت لأصحابها في نهاية الحفل ، بعد أن أُعلن عن تسمية هذه الدورة الإبداعية بدورة طارق عسّاف، لكن أمنيتها لم تتحقّق ، فقليلةٌ هي أمنيات اليتامى المتحققة . استسلمت اللوحة بانكسار ليديّ أم طارق التي ضمتها بانكسارٍ إلى صدرها ، وغادرت مبنى المركز الثقافي لا تلوي على شيء ، وتقفل يدها بحزن على جائزة طارق المالية التي حلم أن يشتري بها علبة ألوان من النوع الفاخر ...

رجل محظوظ جداً!!!

لأنّه رجلٌ محظوظ جداً !! فقد قرّر أن يشارك عصبة من المعارف في مشروعهم السّري ، فلعلّ العصبة تتوزّع معه الحظّ الجيد الذي يلاحقه دائماً، ويصبّ عليه جام مصائبه، مع أنه يخشى على الأصدقاء وعلى المشروع كذلك من سوء طالعه الذي يلاحقه منذ وُلِد ، فقد ماتت أمّه في لحظة انزلاقه رخواً دبقاً إلى الحياة ، وبحضوره الميمون يتّم أحد عشر شقيقاً وشقيقة. زوجة أبيه المطلّقة رفضت أن تتصدّى لرعايته،فقد وُلد ضعيف البنية ،دائم العلّة يحتاج إلى وافر رعاية، فورثته العمة العاقر الأرملة ، التي ربته كما تُربي دجاجة أو غنمة صغيرة ، القليل من الطعام، والأقل الأقل من العناية. الأخوة لم يذق منهم سوى ذكرى مجاملات لطيفة،وأنس سرعان ما يتبخّر من نفسه كلما زار بيت أحدهم،فيغادر دون أن يلفي في نفسه سوى امتنان الضيف لحسن الاستضافة. درس على حساب إحدى المنظمات الخيرية ، وإن لم يســتطع أن يستكمل دراسته العليا؛ لأنّ

حظّه العائر على الدوام جعل معدّله ينقص بمقدار عُشرٍ حقيرعن المعدل المطلوب لإرساله في البعثة المتمناة. في أوّل رحلة في القطار فقد رجله اليمنى في حادث إهمال قُيّد على إنّه قضاء وقدر ، ولذا لم يستحق عليه أي تعويض، فأنّى لتعويض أن يعيد قدمه التي لاكها القطار ، ولفظها على سكّته كتلةً لحميةً فيها شوائب عظمية مهروسة بشدة ؟!!

من سوء الطالع أنه كان أكثر رجال الدنيا سوء طالع ، فضلاً عن أنّه كان نفسه ، ولم يكن أيّ أحد إلا ذاته عديمة الحظ ، المتعثرة دائماً بقدر يصمّ أذنيه دون دعائه،ويأتي على غير ما يشتهي ،ويذهب بوداع غير وامق، فقد اعتقد أنّ قسمته التي انطوت على حصوله على نفسه دون الذوات الأخرى ليست إلا شكلاً من أشكال سوء الطالع ، كم مرة فكر في أن يحتال لنفسه فيبدّل نفسه بأيّ نفس أخرى عندها حظ ولو بمقدار حبة خردل !!! ولكن كلّ محاولته باءت بالفشل ، وبقي حبيس نفسه ، التي تستحق كلّ رثاء ، على الأقّل من نفسه ، إذ إنّ أحدٌ لم يكن معنياً بالرثاء لها كما يجب، أو كما يعتقد أنّ أزمته تستوجب من الرثاء.

الشيء الوحيد الذي حالفه الحظ به ، هو هوايته الوحيدة والمتاحة ، ضمن قدراته العقلية ،وفي ضوء إعاقته التي نزلت منذ سنين ، وخلّفته متكئاً على قدم خشبية خشنة ، منحازاً في مشيته لصالح قدمه الخشـــــبيـــة التي تقرع الأرض قــرعاً،وتدمي المكان بحشــرجةٍ

مقيتة، تجعله ضنيناً بالحركة كي لايثير اشمئزاز أو انزعاج الموجودين .الحاسوب كان هوايته العظمى ، التي تدفعه إلي عوالم ما كان ليدركها ، وتجعله ضمن نسق عالمي ضخم ، وتثريه بالمعارف والأصدقاء والصلات .

له أصدقاء في كلّ أقطاب الدنيا ، مضطلعٌ بكل ما يجري في أنحاء المعمورة ، على اطلاع دقيق على تكنيكات الحروب ، وعلى علم كذلك بالعلاقات السياسية المريبة ، يعرف أين صبّت آخر الأسلحة المُتخلّص منها بعد الحرب الكونية الأخيرة، وفي حافظته الإلكترونية أسماء أشهر أعلام المال والسلاح والجنس وتجّار الموت في العالم ، قادر على اختراق أنظمة الأمن في أخطر أماكن الدنيا ، يحلو له أحياناً أن يمتدّ لحظة خفية في أروقة ومحافل سادة الدنيا ، يفكّ شفرات أجهزة التجسّس ، ليصبح ضيفاً سرياً على أنظمة الحواسيب ، يعرف أكثر مما يجب ، بل وأكثر مما يشتهي ، ينسحب كما دخل ، أحدٌ لا يدري بوجوده ، خلا بعض الخراب الذي يحدثه في الأنظمة بقصد الانتقام لنفسه التي ستمضي أياماً متقزّزة ، ومضربةً عن يسير الطعام الذي تتوافر عليه ، انزعاجاً وقرفاً مما سمع وعرف ،ثم يتشافى،ليعدو من جديد على أسرار وأنظمة غيره .

لديه يدان سحريتان قادرتان على حلّ أعقد الشيفرات ، وعلى فكّ أعتى الرموز السريّة ، قدّم تقارير تفصيلية بقدراته الاستثناية ، وبموهبته العجيبة لكثير من الجهات، لكن أي جهة لم تبدِ رغبةً في

استقطابه ، حتى تلك الجهات السرية المتناثرة في أصقاع المعمورة ، التي تجرّأ وأطلعها على قدراته على اختراق أنظمتها ، أعياها الرّد ، وتجاهلته ، وعدّته نكرة لا تستحق أن يُحرّك في سبيلها ساكناً ، وما ظنّته خطراً يُحيق بها ، فخلّت بينه وبين موهبته التي تذهب سُدىً دون طائل .

الجهة الوحيدة التي بالت بعروضه ، وطلبت مقابلته لم تكن معينة بشكل أو بآخر بموهبته ، بل أبرقت له بإيعاز من دائرة تشغيل الحالات الخاصة ، باعتبار أنه معاق ، يحتاج إلى أيّ عمل ضمن قدراته ، وفي ليلة وضحاها وجد نفسه مدفوناً تحت الأرض ، في قاعة مبرّدة أكثر مما يجب ، لحفظ مخطوطات هو القيم على حفظها ، وعلى تيسير مهمة الاطلاع عليها دون تصويرها أو اتلافها لكلّ طالب علم ، وكثيراً ما يكون عالماً انحنى ظهره ، وشاب شعر رأسه الذي انحسر حتى كاد يجدب من أشجاره ، يتناوب على استخدام نظارتين ، أحدهما لمعالجة القصر ، والأخرى لتبديد معضلة طول النظر ؛ لكي يطالع باهتمام مسكون بالسرية مخطوطات ذات أسماء غربية ، لمؤلفين ابتلعهم النسيان .

عرف أنّ الكثير من المراجعين لمقرّ المخطوطات الوطنية يبذلون جهوداً جبارة ومضية ودؤوبة لسنوات طويلة،وبدعم جهاتٍ مختلفة ،ونادراً بالاعتماد على تموين ذاتي مقنّ،لإعادة قراءة تلك المخطوطات ، والتهميــش عليها ، ومن ثم تحقيقها ، وبعثها من البِلى في كتب قيّمة

، لها وزنها وأهميتها في ميدان تخصصها .

تابع باهتمام تلك العلامات المكتوبة على المخطوطات ، وأصبح قادراً على الحكم على أهمية وقيمة المخطوطة ، كما كان قادراً على معرفة إن كانت المخطوطة بخط صاحبها ، أم هي إملاء على أحد تلامذته، أم أنّها نسخة أحد النسّاخ، كان يعلم أنّ كثيراً من الهوامش التي تبدو خطوطاً عبثية تزحم هوامش وجوانب المخطوطة قد تكون كتاباً آخر مؤلفاً عن هامش الكتاب الأول .صنّف المخطوطات حسب أهميتها ،ثم أحصى نسخ المخطوطة الواحدة ، حجل طويلاً حول المحققين، تابع ملاحظاتهم باهتمام ، وسمح لنفسه بالتدخل بالأسئلة التي تفكّ رموز مايكتبون، وتفسّر ما يفعلون ، أسئلته الذكية ، وملاحظاته الطريفة الجديرة بالإحكام ، جعلت له مدخلاً حسناً ، وتقبّلاً طيباً في أنفس المحققين الذين أجابوا طويلاً وبإسهاب على كلّ أسئلته ، واستمتعوا بمناقشاته واستدراكاته وملاحظاته ، التي ما وجدوا في أنفسهم حرجاً في تدوين بعضها ، والتوقف كثيراً عند جُلّها.

وغدا راهب المخطوطات الذي يلجأ إليه المحققون والباحثون ويسترشدون بملاحظاته التي لا يضنّ بها على أي زائر للمكان ، إلا زائري ركن مخطوطات السحر والشعوذة، وإن كانوا قلة، فقد كانوا متكتمين أكثر مما يجب ، يجيبون على الأسئلة باقتضابٍ وخبث ، يتنحون جانباً، ويطالعون المخطوطات بحرص من يبحث عن سرّ ، يدونون ملاحظاتـــهم على أوراق صغيرة، يدسّـــــونها في جيوبهم

بحرص ، دون أن يعرف ماذا كتبوا فيها مهما اجتهد في معرفة ذلك ، ثم يقفلون مغادرين ، قد يعودون مرة أو اثنين بعد ذلك ، وفي الغالب لا يعودون ،هيئاتهم لا تشبه هيئات أهل العلم ، يخامره إحساسٌ مشوشٌ تجاههم ، يقتضي منه الحرص والتيقّظ .

الفضول وحده من قاده إلى الاطلاع على تلك المخطوطات القليلة المنزوية على رفّ سفلي في آخر القاعة بالقرب من آلة التبريد ، طالعها طويلاً ، معرفته بالمخطوطات لم تسوّغ له إلا معرفة القليل مما قرأ فيها، أما الباقي فقد بقي غامضاً لايفكّ كنهه إلى أن تعرّف إلى ذلك الشاب الطامح الذي شابه من سبقوه بزيارة المكان باللباس الملفت ، وإن خالفهم بالتبسّط والأريحية في الكلام ، اللتين ساقتهما سريعاً ، ودون توقّع أو مقدمات مطوّلة إلى الاتفاق على البحث سوياً ضمن فريقٍ من الأصدقاء عن الذهب في الصحراء الشمالية ، حيث لا حياة أو بشر ،فقط ذكرى سكة حديدة قديمة ، باتت مهجورة غير مستعملة منذ أن تبدّلت خارطة المواصلات في العقدين الآخرين .

كانت مهمته تنحصر في استخلاص أهم مشاريع ومخططات آلات الكشف عن المعادن من شبكات التصنيع والتعدين ومواقع الهندسة لميكانيكية والالكترونية على الانترنت؛ لتصميم جهازٍ كشف عن المعادن ، الذي سيقع عبء تنفيذه على عاتق بعض الأصدقاء أصحاب الاختصاص . البحث كان طويلاً ، والنتيجة كانت أقل مما يتوقع ، لكنّها مقبولة على اعتبار أنّها خطوة أولى في تصميم

الجهاز وتنفيذه ضمن ميزانيتهم المادية المحدودة .

تكاثف فريق العمل وتعاضد أعضاؤه إلى أن حصلوا على الجهاز المطلوب ، الذي خيّب آمالهم في رحلة عمله الأولى ؛ فقد قصر مداه على متر أو مترين يستطيع أن يكشف خلالهما عن وجود المعادن ، وما تجاوز ذلك فقد كان يقصّر دونه ، لكن البحث بقي مستمراً .

تحوّل إلى صحراوي من أوابد الصحراء التي ابتلعته والأصدقاء، واشتملتهم بهدوئها وسحرها، كان البحث شاقاً، وتتبّع خرائط الكنوز عسيراً ومضنياً، يلزمه أنفساً لاتعرف اليأس أو التعب، ولا تشتكي أفاعي الصحراء أو الشمس المحرقة أو الحرارة التي سلخت أبطيه ، ومابين فخديه ، وهيّجت عقدة اللحم التي بُترت ساقه من تحتها ، لكن بريق الذهب المُرتجى ، وأمل الثراء المفاجئ كانا حافزين لا يعرفان فتوراً في أنفس الجماعة ، ولا سيما في نفسه التي تخطّط أن تغتال بالذهب حظّها العاثر ، وأن تنفق بعضاً منه على شراء حظٍّ جديد ، يعوضه عن حرمان الماضي ، ويسعف أيامه القادمة .

أهمل عمله طويلاً ، وسمح لنفسه باختلاس بعض الصفحات الخطيرة من مخطوطاته الثمينة ، واستطاع بعد جهد وعناء أن يفكّ طلاسم ومتغيرات كثيراً من الرموز والخرائط التي اصطلح عليها دافنو الذهب ، وجعلوها مفاتيح سرية لمعرفة أماكن دفائنهم؛ لعلهم يعودون يوماً إلى استخراجها،الموت حال بين الكثير منهم وبينها، في حين بسم الحظّ للكثير من الذين وقعوا على تلك الدفائن، فتبدّل فقرهم

غنىً،وتعسهم حظّاً ، وافترّت الدنيا لهم عن ابتسامة ذات أسنان ذهبية .

صورتا الجمل والجرة هما الصورتان الأحبّ لقلبه، وهما الصورتان اللتان بحث عنهما طويلاً مع الأصدقاء ، فالجمل أو الجرة يرمزان للكنز ، بفارق بسيط ،فصورة الجمل أو الجرة النافرة تعني كنزاً مدفوناً على عميق قليل ، أمّا صورة الجمل أو الجرة الغائرة فتعنى كنزاً مدفوناً على عمق سحيق ،قد يستلزم استخراجه شهوراً من الحفر ، ولكنّه مستعدٌ لبذل ذلك المجهود الخيالي ، ولكن أين هما الصورتان المحفورتان ؟ بحث عنهما طويلاً بجهد مضني ، أربك عاهته المزرية، وآلم ظهره دون جدوى .

حفظ الكثير من قصص الباحثين عن الذهب ، التي انتهت في معظمها بالتمنّي والفشل، والموت ، وفي النادر بالذهب والغني ، فقصص الذهب كانت ملطخة بدماء الأصدقاء الذين يغدون وحوشاً مصابةً بالصرع مع أول بريق ذهبي ، تمنّى الذهب دون الموت ، بحث طويلاً عن شخص واحد وجد ذهباً ، ليكون عزاءه في الصمود ، لكنّه لم يصدف ولو واحداً ، فحكايا الذهب والكنوز كثيرة ، لكن من المستحيل أن تجد فماً واحداً يتشدّق متفاخراً سعيداً بلقيته الثمينة ،فالصمت والسرية هما أفضل تدبير مع الذهب ، هكذا علمّه الأصدقاء ، وهكذا علّمته قصص الذهب.

تساءل طويلاً إن كان سيحظى يوماً بالذهب ، وتمنّى أن يحصلّه

حياً لاجثة هامدة ، تتناوشها طيور الصحراء ، وتتكالب عليها هوامها وضواريها ، مع أنّ حظّه العاثر كان يوسوس له كثيراً بالسوء ، ويتمثل أمامه سبباً متوقعاً لكلّ البحث الفاشل الذي يُمنى فريقه به المرة تلو الأخرى ، ويلوّح له باليأس الذي تنعى نفسه الاستسلام له ، وإن كان يحدّث نفسه طويلاً بأنّ الرحيل بعيداً مع حظه العاثر قد يفتح أبواب الكنز أمام الأصدقاء ، ولكن طمعه وتمنيّه للذهب ما كان ليحمله على النزول على حديث نفسه ، ولا يصيب في نفسه إذعاناً لشكوكه ولوساوسه ، فكل عنائه وسنين شقائه سبب كافٍ لأنّ يصمد ،ولأنّ يستمر، وإن قصّر توقعه دون أنّ يعرف أنّ الانتظار على وشك الأفول ، وأنّ باب الكنز قيد أنملة أو أنملتين .

في قلب الصحراء ،في واحة جافة،تكدّست صخورها بعبثية طبيعية خلاّبة ، وفي قلب صخرة عظيم ، حيث كانت تنفجر أعينٌ جفّت منذ زمن ، مخلّفة نخلات سامقة ، وأحجاراً ملساء براها الماء، وحفّها الهواء ، كانت صورة الجرة مرسومة بعناية ، بأطراف نافرة،أسعدته الصورة كما لم يسعد يوماً ، رعدةٌ سرت في معاول الأصدقاء إثر مشاهدة الصورة،انهالوا بحفرٍ نشطٍ ممزوجٍ بنشوى غريبة،لاتعرف توقفاً، ولا تأنس لراحة،المعاول كانت الحي الوصيد والنشط في خمول المكان، في حين انحصر عمله في إعمال آلة كشف المعدن في المســـح،التي ما فتئ رنينها المتعالي الذي لا يعرف انقطاعاً يؤكّد أنّ الكنز بات أقرب من تعبهم ،ضـــربة من أحد المعاول اصـــطكت بشيء

معدني ، توقف المعول صاحب الضربة ، واستنّت المعاول الأخرى سنته ، حدّق الكلّ سعيدين في وجوه بعض ، كانوا جميعاً ينتظرون الضربة الأخيرة التي ستظهر الكنز ، لكن أياً منهم لم يجرؤ على تلك الضربة ، فقد كان الحلم قيد ضربة معول،لابد أنّ الرؤوس كلها كانت مشحونة بفكرة مضطربة واحدة ، لسان حال وجوهم الواجمة ينقلها ببلاغة ، قدّر صاحب الحظّ العاثر أنّ كلّ الألسن تسأل:" ماذا بعد ؟" لكن أحداً لم يجب ، وتركّز الحفر والضرب في مكان الضربة المشهودة ، وسريعاً ما برزت صناديق الكنز ،كانت صناديقَ سبعة صدئة ، محكمة الإغلاق ، متنحية بصمت ، كعذراء لم تفضّ ، تنهدات الراحة انبعثت من الصدور التي أنهكها البحث والحفر ، فمن الواضح أنّ الكنز بكراً لم تمسّه يد، وأنّهم سيكونوا مفترعيه.

صاح صوت : "مرحى ، لقد أصبحنا أغنياء أخيراً"

تعاضدت الأيدي ، وتصدّت الصدور فرحة لتحتضن الآخرين مباركة مهنئة ، مؤكّدةً عهود الأمان المبرمة في الماضي ، وإن كانت الأنفس تحمل حذراً ليس لطرده سبيل في ظلّ الثروة المستلقية على الأرض .

سأل صوت آخر بتحمسٍ ذكوري مشحون : "ولكن صناديق الكنز سبعة ، ونحن ثمانية رجال ،فكيف ستكون القسمة؟" أطرق الكلّ ، في حين قال آخر بحذر من يحاول أن يحلّ مشكلة مفترضة ، قد تلوح في الأذهان المتــوقدة باســتفزاز لذيذ:" لا مشـــــكلة ، ليتقاسم

ثمانيتنا الصناديق السبعة !"

ردّ صوت متوقّد آخر:" ولكن قد تكون القسمة بهذا الشكل غير عادلة ."

- "ولكن كيف ؟"

- "انظر هناك جرة صغيرة أيضاً ، فكيف سنقسم جرة واحدة وسبعة صناديق على ثمانية رجال ؟"

- "صحيح ، عندنا مشكلة حقيقية."

- قال صوت متحدٍ بخبث : "لعلّ من المناسب أن نكون سبعة رجال لاغير ..."

خيّم صوت رهيب على المكان ، حسبة سريعة وخطيرة كانت تتّقد في أذهان الصامتين، وشبح الموت يلوّح بأجنحة سوداء تخيّم على الواحة الجافة ، أيقن الرجل ذو الحظ العاثر أن حظّه العاثر قد حضر الآن مدجّجاً بقوته اللعينة ، وخال أنّه جاء هذه المرةتواضعاً يده بيد ملك الموت ، لابدّ أنّه الحلقة الأضعف ، والحصان الأهزل في سباق الذهب ، إحدى الأعين التي امتدّت بتلقائية إلى قدمه الخشبية أكّدت توقعاته ، فلا بدّ أنّ التخلّص من رجل بقدم واحدة سيكون أسهل الحلول ، وأسلم التسويات في هذا الخيار الجهنمي ، ولكنّه ما كان يريد الموت ، وما كان في طاقته كذلك أن يتصدّى برجل واحدة لسبعة رجال أزاغ بريق الذهب قلوبهم وأسماعهم وضمائرهم ،كان عليه أن يجد حلا لنفســـه في أجزاء من الدقيقة . خرق صمته الهدنة

المريعة التي يقطعها الكلّ في زمن رتيب جاثٍ على تحفّز النفوس ، وعلى فوضى الأفكار ،ثم قال بحزم: "أنا لا أريد صندوقاً ، تكفيني تلك الجرة الصغيرة ، وتقاسموا أنتم الصناديق ." " تسوية عادلة " صاح صوت . "أظن أنّه اقتراح مقبول " صاح صوت آخر .

اقترب الرجل ذو الجسد العظيم والعضلات المفتولة الذي تتنزّى شهوة الذهب من بين لعابه من الجرة الصغيرة ، ودفعها في الهواء باتجاه صاحب الحظّ العاثر ، الذي بذل جهداً كبيراً ليكيّف جسده ، ولينحني نصف انحناءه جانبية ، ليلتقط الجرة الصغيرة ، ضمّها إلى صدره ، كانت غنيمة مقبولة إلى جانب بقائه على قيد الحياة ، خطا خطوة مبتعدة ، وقال :" بهذه الجرة أكون قد أخذت كلّ حصتي ... ". لم يسمع جواباً ، لكن صمت الجميع أراحه ، انطلق في الصحراء ، يحمل غنيمته الصغيرة ، ويستعدي كلّ طاقته ، لتسعفه أكثر ما يمكن في الابتعاد، كان صوت نقاش الأصدقاء مازال يشحن صمت المكان ، الصراخ كان في تعالٍ ، مع أنّه كان في ابتعاد، من الواضح أن خلافاً جديداً في القسمة قد ظهر ، واشتد ، أصوات الطلقات النارية أكدّت أنّ تسوية دموية تحدث في الواحة ، ما كان ليبالي بها ، حتى بعد أن توقفت العيارات ، وسوّيت الخلافات لصالح واحد لاغير ، رآه من بعيد يركب سيارته الصحراوية ، ويبتعد بعيداً بغنيمته العظيمة ، وسحابة الرمال المتطاير إثر عربته تشيّعه بجلبة مزعجة ، لم يفكر أبداً في أن ينثني عن سيره .

ثم وصل إلى جرف صخري يعلوه شق صلدٌ عظيم ، اندسّ بين صخور الشقّ ، أخذ راحة كاد الموت يزهق روح صاحبها ،الذي أعيته القدم الخشبية سقوطاً وانزلاقاً وعرجاً ، جفاف الموت لفح حلقه ، كان مستعداً لشراء شربة ماء بكنزه العزيز الذي يضمه بحنو إلى صدره المكسو بالقليل من اللحم المزبد بالشعر الأسود.

هدوء المكان وأنفاسه التي كانت تجنح للانتظام أكداّ له أنّه قد أصبح في عهدة السلامة، مسّد على جرته ، وتساءل أيّ الجوهر يسكنها؟ كان بين شهوتي الاكتشاف أو التمنّي ، اختار الشهوة الأولى ،فقد شبع قسراً طوال حياته من الشهوة الأولى ، استعان بحجر صغير مدبّب لتهميش فوهة الجرّة الموصدة ، غبار رمادي غريب اندفع من الفوهة ، للحظات انعدمت الرؤية ،ثم استوى الغبار امرأة جميلة ، بغلائل شفافة، وقرون ذهبية صغيرة ، وابتسامة جهنمية، حضنته كما غول ، كادت تهصره ، ثم أرسلته بشهوة ، وقالت له :" هاقد التقينا ياسلطان الزمان ".

سأل بخوف يكاد يقتله:"من أنت؟"

ردّت بتحمس : "أنا زيزفونة ."

سأل بتوتر وقلق : "من زيزفونة ؟"

– "أنا جنية المتوفى صاحب الكنز الذي حررتني منه ."

– سأل بخوف :" أكان هذا الكنز لمتوفىً ؟"

– "بالطبع ، هذا الكنز لرجل متوفىً ، ولو حفرتم بمقدار متر إلى

شمال الكنز لكنتم حظيتم بهيكله العظمي ."

– "الحمدلله إذ حرمنا مقابلة ذلك الهيكل."

- "هل عندك مستودع السّر؟"

- ردّ بوجل وريبة :" بالتأكيد ."

دنت منه ، فتضوّع أريجها ، وسكن خيشومه ،قالت بتؤدة :" حيث وجدتم الكنز هناك بحر من الكنوز ، فهذا المكان مقبرة ملوكية قديمة ، تحت رمال تلك الواحة بحر من الكنوز."

– "وماذا عنك ؟"

– "ماذا بشأني ؟"

– "أقصد ألن تعودي من حيث أتيت ؟"

– "مستحيل ، فأنا في انتظارك منذ ألف عام ..."

– "تنتظريني ،لماذا ؟!"

– "انتظرك لأتلبّس جسدك ... وأصبح وإياك واحداً "

– "ولكني لا أريد ذلك !"

- "ومن سيبالي برغبتك ؟! أنا أحبّك ."

- "منذ متى ياكاذبة؟للتو قابلتيني!"

- "سُرقت من أرض الجنّ ، وسجنت في تعويذة سحرية لأسكن جسد ملك البربر ؟"

– "إذن اسكني جسده."

– "ولكن جســـــده بلى وتحلّل ، وأنا ملك لمن يجدني ،وأنت من

وجدتني ، بل أنت من اختارني ، ألا تذكر أنّك اخترتني ،وتخليت في سبيل ذلك عن صناديق الكنز ، لذلك سأسكن جسدك إلى الأبد ..."
قال بريبة ويأس من أُسقط في يديه : "ولكن هذا سيفسد حياتي ."
ابتسمت ، وغمزته قائلة :" لاتقلق ، فمن يدري قد تحبني وقد نتزوج ، وقد ننجب أبناء خليطاً من جسد الإنس وروح الجن ."
– "ابتعدي عني أيتها الملعونة ."
– "ولكنني أحبّك ."

حظّه العاثر كان هاجسه الوحيد وهي تخترق جسده ، وتنازع روحه المكان ، وتضيق على أحشائه ، كانت كرمح مسموم يندسّ بين اللحم والعظم ، يؤلم ، ثم يقتل ، كره الكنز ، وحقد على حظّه العاثر الذي ملكّه لجنية عاتية سرعان ما تحولت إلى حبّ عظيم اجتاح نفسه البائسة،و اكتنف جنباتها ،وحاق بآلامه ، وأشعل جذوه سعادة لاتخبو في وجدانه،وجعله يؤمن بحقّ أنّه رجلٌ محظوظ ؛ إذ نجا من الموت الذي ابتلع أصدقاءه ، فضلاً عن نجاته من حبل المشنقة الذي التفّ حول رقبة الناجي الوحيد من رفاقه،ثم وهبه جنية ساحرة ، سكنت الزمن والجوهر ، وتصدّت لحبه ، وملأت نفسه الحزينة سعادة ،وجعلته بحق رجل محظوظ جداً!!!

دقلّة النّور

من الواحة التي تسكنها أو الغابة كما تُسمى حيث نهاية السَّفر الطّويل لكل الرِّحل وسرّ حروف العشق والجمال تستطيع أن ترى خيام أولئك العرب الخليجين الأثرياء الذّين جاؤوا من الخليج؛ لينصبوا خيامهم المترفة فوق رحال الصَّحراء الملتهبة بالحكايا والقصص والانتظار، هم جاؤوا من البعيد مدجّجين بمالهم وترفهم ؛لينصبوا الفخاخ والبنادق للطّيور المهاجرة التّي تمرّ بصحراء توزر، وسكّان تلك المدينة الصّحراوية الهاجعة في صمتها الحارّ لا سيّما صغارها وشبّانها جاؤوا ؛ ليسترقوا النّظر إلى أصحاب الدّشاديش البيضاء ذوي الخدم، وسام الوجوه، نظيفي الملابس.

كان قدومهم شبه الموسميّ يثير البهجة والفضول في نفوس سكّان الواحة، ولكنّ قدومهم هذه المرّة حمل الكثير من المتاعب والقلق، وحمل معهم ذلك الأسمر المديد القامة، ذا الملابس العصريّة الزّاهيّة، والنّظّارتين السّوداوتين اللّتين لا ينزعهما أبداً، حتّى ولو كان

في غمرة تشجيعٍ وفرحٍ يدعم فيها مايعاينه من الصّيد الوفير الذّي حقّقه رفاقه في رحلتهم الصّحراوية، فقد كان يكتفي بابتسامةٍ عريضةٍ تُظهر لامع أسنانه، وتبرز ذقنه المحدّد، وشاربه الأسود الدّقيق.

كانتْ تعنيها نخلاتها العفيَّة التّي تمتدّ على مدّ النّظر أكثر مما تعنيها متعة مراقبة المخيِّمين في قلب الواحة بالقرب من عين الماء، لكنّه أصبح صداعها المزعج منذ أن قابلته في سوق الواحة مقبلاً على تذوُّق تمور (دقْلة النّور) ،هو ورفيقة الأوروبي ذو الشّعر الإسفنجيّ، والعيون الخرزيّة، والنّمش القبيح، كانا مضطّلعان بتذوّق التّمور، ومطالعة أديمها البلوريِّ ونواتها الانسيابيِّة ، كانت تموراً أسطوريَّة ، وكأنّها من ثمار الجنَّة، اسمها دقلّة النّور، أي أصابع النّور كما أسماها المزارعون البربر، هي سحر صحراء توزر، فهي هبة صحرائها دون أراضي الدّنيا، وقد اكتسبت اسمها من شكل ثمرتها التّي يستطيع المرء أن يرى النّواة منها.

اسمها دقلْة النّور، ولكنّ دقلّة النّور الثّمرة هي من كانت مقصده بإيعاز من شركائه الأمريكيّين، الذّين كان يصبو وإيّاهم للسّيطرة على تمور الواحة، ولذا فقد أصبحت هي بحكم ملكها لكثيرٍ من أشجار هذه الواحة مقصداً له.

قابلها بعد رحلةٍ طويلةٍ في المكان، ومن بعيد من فوق إحدى تلال توزر الجرداء حيث اعتاد شاعر توزر أبو القاسم الشابّي أن يجلس لينظم أشعاره أشار إليها أحد سكّان الواحة ليعرفها، فترجّل عن

صخور التّلّة، يقصدها هي بالذّات، كانت تزداد سمنةً في عينَيْه كلّما اقترب منها، قبل أن يصلها همس الأمريكيّ بلغته الغربيّة التّي يستطيع أن يفكّ طلاسمها قائلاً: "يا لها من سمينة صغيرة"، فابتسم لكلماته مؤيّداً، كانت سمينةً بسمرةٍ داكنة، ولها عينان تحملان إرثاً بربريّاً طويلاً من التّمرد والعصيان والثّورة، سرّه أن يتابع فصول تاريخه في عينيها ذاتي اللّون التّمريّ، وإن لم يسرّه أن تردّ عرضه السّخيّ، وأن تسخر من مشروعه الذّي يهدف إلى شراء الواحة، وامتلاك أشجارها السّحريّة ذات الثّمار الأسطوريّة، وصفته بالخيانة والتآمر لصالح الغريب، وقدحته بتهمة التّنكر للأصل والدين، خلع نظارته، فأصبحت تماماً قبالة عينَيْها اللّتَيْن تستعران بغضبِ تنينٍ ينفث النَّار والوعيد، لأوّل مرّةٍ ترتعد أمام نظرة رجلٍ ما، عرفت في حياتها الكثير من الرّجال والأغراب، ولكنّ غضب عينَيْه كان له وقع انكسار أيقونه مقدّسةٍ في نفس ناسكٍ متعبّد.

طويلاً ما طاردها أملاً في أن ترضخ لرغبته، ولكنّها ما رضخت بل كانت بمثل بُعْدِ سرابٍ صحراويٍّ في مفازةٍ ليس لها نهاية، حرّضت عليه كلّ سكّان الواحة الذّين باتوا حذرين منه، ومن ضيوفه، تمنّى أن يصفعها، وظنّ أنّ من الممتع أن يُذلّ أنوثتها السّمراء الموهوبةِ بسخاء لجسدها الغضّ الممتلئ بقوّةٍ. ابتداءً سخر من سمنتها، ولكنّها ما بالت، ثمّ سخر من اسمها، فما بالت، ثمّ طاردها مصرّحاً بحبّه المرّة تلو الأخرى، وما استجابت ، فحقد على

أنوثتها السّمراء الممتلئة.

كان يقضي نهاره في شراء أشتال تمور (دقلّة النّور)، وتكديسها، تحضيراً لإرسالها إلى أصدقائه في أمريكا لدراسة خصائصها ،تمهيداً لزراعتها في مناخٍ مشابه لمناخ أرضها الأمّ في كاليفورنيا، أمّا ليله فيقطعه متفرّساً النّيران الموقدة بين الخيام التّي يُشعلها الخدم للسَّمَر ولشواء الخراف، ومنتهزاً أيَّ فرصةٍ ليسترق أيّ معلومةٍ ولو كانت صغيرة عن السّمراء السّمينة التّي أراد أن يقهر أنوثتها، فهزمته وسكنت أحلام يقظته.

طارد قصص الواحة، واستغفل ثرثرة النّساء، وراود الأطفال على الحلوى والسّكاكر ليعرف أنّ اسمها دقلّة النّور، سُمّيتْ بذلك تأكيداً على نسبها لامرأةٍ مبروكةٍ فقيرةٍ كانت تسكن الواحة منذ مئات السّنين، وكانت أُمنيتها أن تذهب إلى الحجّ، وأن تزور قبر الرّسول الكريم، ولكنّها ماتتْ قبل أن يتحقّق هذا الحلم، فدُفِنتْ في أرض الواحة، ودفنت معها مسبحتها القديمة المصنوعة من نوى التمر، فرقّ الرّسول الكريم لحالها في قبره، فهبطت دموعه على المسبحة، عندها لم يتحوّل النّوى الجافّ إلى واحةٍ مليئةٍ بالنّخيل فقط، ولكنّه أنتج نوعاً من التّمور لم يكن موجوداً من قبل، هو دقلّة النّور.

كانت قصّةً ترويها الألسن في الواحة، ويرفضها عقله الذّي يدين لأحدث النّظريّات العلميّة الحديثة التّي اطّلع عليها في دراسته الطّويلةِ في الغرب، لكنّ هذه المزاعم الأسطوريّة كانت توافق بشكلٍ

أو بآخر هالة النّور التّي يراها تحيط بسمرائه السّمينة.

لا تعجبه السّمينات، لكنّ لجسدها الذّي يضجّ بشيءٍ سخينٍ ودافئ وقعٌ كبير على حواسّه التّي تنتفض كلّما مرّت به مزدريةً محتقرة، حاول أن يسترضيها أكثر من مرّة، لكن دون فائدة، وانتهى موسم الطّيور المهاجرة، وأفلت متعة الصّيد، وشدّ الأصدقاء الرّحال قاصدين أصقاعاً شتّى في الدّنيا، وحزم اشتياقه مع ثمار دقلّة النذور، وسافر دون أن يراها، مع أنّه بذل جهداً حقيقيّاً لكي يراها أثناء جولةٍ طويلةٍ في سوق الواحة، ولكنّ ذلك لم يحدث، كأنّها تعمّدت أن تغيب في لحظة الغياب.

مع أفول المساء كان الأفق يودّع عربات الأثرياء الذّين يغادرون المكان ويغيبون عنه، ولكن لا يغيبون عن ذكرى دقلّة النّور التّي ودّعت المسافرين بحزنٍ غريب، وتنفّست الصّعداء بعد رحيل متعة الصّدّ والرّغبة.

وعادت إلى الاعتناء بأشجارها المقدّسة، وما عادت تذكر ذلك الأسمر البغيض الذّي نغّص عليها موسم الصّيد الماضي، وإن كانت من وقتٍ إلى آخر تلقي القبض على نفسها، وهي تعدّ الأشهر والأيّام في انتظار موسم الصّيد القادم، وتساءل نفسها باستنكارٍ وعتابٍ إن كان يجوز لامرأةٍ تحمل اسم دقلّة النّور أن تكون بمثل هذا الامتلاء والاكتناز، فتجيب نفسها بدلالٍ مصطنع وهي تهزُّ كتفَيْها بلا مبالاةٍ مصطنعة: "ولمَ لا . . ."

وعاد موسم الصّيد بطيئاً رتيباً ينتضي وجوهاً جديدة، لم تجد فيها وجه الأسمر الغليظ الذّي بحثتْ عنه بفضولٍ وجلٍ قلق، شعرت بخيبة أمل ضائعٍ في الصّحراء، وعاهدتْ نفسها على عدم الانتظار، لكنّها عادتْ رغم إرادتها إلى الانتظار.

ومع موسم جدّ التمور ظهر الأسمر دون توقّع، كاد قلبها ينخلع سعادةً، ولكنّها تبرّمت بصورةٍ اصطناعيّة ميكانيكيّة، وضنّتْ عليه حتّى بابتسامة، وبالكاد صافحته بعد أن مدّ إليها كفّاً كبيرة بأديمٍ أسمرٍ شابّ، لا يخفي النّعيم عليه، بعكس أديم كفّها التّي أضناها التّعب والشّقاء والعمل المتّصل، وقال لها بتندّرٍ شهيّ : "ها قد أصبحتِ أنحف يا دقلّة النّور، ولكنّكِ للأسف لا تزالين في عداد السّمينات". تمنّتْ لو أنها تصفعه، ولكنّه ابتعد غير مبالٍ بغضبها وشماتتها به عندما علمتْ أنّ محاولاته والأمريكيّين فشلت جميعها في زراعة دقلّة النّور في كاليفورنيا، وقبل أن تعبّر عن اشتياقها، وقبل أن تجود عليه ولو بابتسامةٍ واحدة كان قد غادر الواحة نحو أمريكا بعد أن أخذ معه عدداً كبيراً من شتلات نخيل دقّة النور وعمّالٍ من دوز وتوزر؛ ليقوموا على رعاية النّخيل المراد استولاده في كاليفورنيا.

ومن جديد غاب، وما عادتْ تنتظره ؛لأنّها أدركت أنّه معنيٌّ بدقلّة النّور الثّمرة أكثر من دقلّة النّور الإنسانة، ولكنّه عاد، كسر توقّعها وعاد، عاد في غير موسم الصّيد، وفي غير موسم جدّ التّمور، لم يبحث من جديد عن شتلات دقلّة النّور، ولم يعنّ نفسهَ بالسّــؤال

عن أفضل المزارعين المهرة في الاعتناء بأشجار النّخيل، بل جاء إليها شبه مهرول، معرورق القسمات، كانت كعادتها في كلّ ظهيرة بالقرب من عين الماء تراقب النّساء والأطفال المتبرّدين بماء الواحة، حدّق فيها، كانتْ صامتةً، لم تبدِ دهشة من قابلتْ شخصاً دون توقّع، ولكنّها أبدت فرحة من ألفت من تنتظره من زمنٍ أمامها، مدّ يده ليصافحها، وقال باسماً بتندّره المعهود: "ها قد أصبحت أنحف من آخر مرّةٍ رأيتُكِ فيها، ولكنّكِ لا تزالين سمينة . . ."

حرّضتْ نفسها على الغضب، ولكنّها لم تستطع، وفرّتْ منها ابتسامة عريضة، تلتها قهقهةٌ عذبة حاكتْ صوت خرير مياه الواحة، سألته بشماتةٍ يخالطها الفضول: "هل نجحتْ زراعة دقلّة النّور في كاليفورنيا؟"

قال ضاحكاً غير مبالٍ: "لا . . . لم تنجح، يبدو أنّ دقلّة النّور لا تريد أن تغادر موطنها".

سألته من جديد بدلالٍ وخبث: "إذن لمَ عدتَ إلى هنا؟"

قال وهو ينزع نظّارته السّوداء، ويحدّق في عينَيْها البربريّتَيْن الثّائرتَيْن المتحرّرتَيْن: "جئتُ من أجل دقلّة النّور . . ."

الصّورة

توقّع حدوث أيّ طارئٍ معيق، وفي سبيل ذلك أخذ كلّ الاحتياطات في رحلته الطّويلة في الأرياف الشّماليّة، إلاّ أن يهاجمه ألم الأسنان من جديد، الذي اعتاد أن يداهمه في السنين الأخيرة دون سابق ،والذي اتّخذ في سبيل ردّ عدوانه الآثم،وفي سبيل وضع حدٍّ له آليّةً طويلةً من الحلول، ابتدأها بالعلاجات الطّويلة التّي أنفق فيها جُلّ ما ادّخره بصعوبةٍ دون أبحاثه على حشرات الفاكهة، ثمّ أنهاها بخلع بعض الأسنان والأضراس التّي أعيته ألماً وعلاجاً بعد أن آمن أنّ الخلع آخر العلاج، وبهذا التّرتيب الأخير أعدم الآلام التّي حاصرته طويلاً، ومنعته من متابعة أبحاثه زمناً طويلاً، وإن كان يسوؤه أن يرى وجهه الشّابّ الوسيم يفتّر عن ابتسامةٍ شبه شوهاء تفتقد الكثير من الأسنان والأضراس، لكنّ عزاء توقّف الألم، وتأجيل أمر زراعة أســنانٍ جديدة إلى حين تحسّن أحواله الماديّة، عقب انتهائه من أبحاثه التّي يعوّل الكثير على نتائجها خفّف من وطأة

انزعاجه، وكان في اعتماده ابتسامةً ترتسم دون أن تكشف عن الأسنان تدبيراً مقبولاً لمشكلة أسنانه وأضراسه المفقودة.

سبق أن داهمته بعض النّوبات القصيرة من ألم الأسنان التّي لم تتجاوز دقائق معدودة، ولذلك لم يعرها أيّ اهتمام، ولكنّ النّوبة هذه المرّة جاءت طويلة ومتمطّية بوحشيّة، لا تفارقه ولو للحظةٍ، جاءت تماماً مع أوّل بارقة إشعاع لشمس الصّباح، جاءت دفعةً واحدةً قويّة، وكأنّها موجةٌ عاتيةٌ محبوسةٌ خلف سدٍّ تهاوى، شعر أنّ لطمةً ما صكّت وجهه المرهق إثر ليالٍ طويلةٍ من الدّراسة والبحث، ثمّ حلّ الألم، ماردا عظيماً، لا يرحم ولا يرحل، كان كلّ فكره المضطرب موزّعاً بين فكرتين لا ثالث لهما، الأولى وكانت الأضعف في اجتذابه، وهي أنّى للألم أن يعود ليغزو أضراسه وأسنانه السّليمة بعد رحلة علاجٍ طويلة ومريرة، أكّد طبيبه بعدها أنّ الألم قد رحل للأبد؟! والثّانية وكانت الأقوى في تملّكه؛ ذلك بفعل الألم الذّي أضنى جسده في أوّل لحظات هبوطه وهي البحث عن السّبيل المثلى والأقرب والأسرع لوضع حدٍّ لهذا الألم، ولو كان ذلك لفترةٍ محدودةٍ، حتّى يتسنّى له أن يضع حدّاً جديداً للألم الذّي يعتصر فكّيه.

جلس في سريره بعد جولةٍ سريعةٍ ومضطربةٍ في الكوخ الصّغير الذّي استأجره بمبلغٍ زهيد، كانت محصّلتها ازدياد الألم حتّى شتّى عظام جمجمته، وضعف حيلته، فلا أقراص مهدّئة معه أو في الكوخ، ولا ســـــيّارة قريبة في المكان يمكنها أن تنقله إلى العاصمة

ليتلقّى العلاج، ولا هاتف في كوخه أو في الجوار يمكّنه من الاتّصال لطلب المساعدة أو حتّى المشورة الطّبيّة.

فكّر في أن يطلب المساعدة من صاحب الكوخ الذّي يسكنه، لكنّه يقيم على بعد ثلاثة كيلومتراتٍ على أقلِّ تقدير، فلا أحد يرغب في السُّكنى فرداً وحيداً وسط بساتين الفواكه، إلاّ من كان هارباً من شيءٍ ما، أو جاء لأمرٍ ما في نفسه، كأن يكون مثلاً معنيّاً بدراسة حشرات الفاكهة عن قرب ومتابعة سلوكها عن كثب، لا سيّما أن المعهد الذّي يتبنّى دراسته قد وهبه منحةً ليست بالسّخيّة، ولكنّها تتوافق مع إمكاناته الماديّة المتواضعة، ومع حاجاته الأساسيّة لا غير.

بحسبةٍ سريعةٍ يائسةٍ قدّر أنّ رحلة العودة إلى العاصمة، وتكاليف العلاج ستستنزف دون شكٍّ مال المنحة، بل وستتجاوزها لتبتلع جُلَّ مدخّراته المتواضعة، شعر بقنوطٍ وتبرّمٍ من حظّه العاثر إلى درجةٍ زادت من وقع الألم على جسده، ومن جديد عاد إلى حمأة الألم والحيرة.

استقرّ رأيه بعد مشورةٍ من حارس البستان المجاور لكوخه على أن يذهب إلى طبيب الأسنان الوحيد الموجود في الرِّيف الشَّماليّ كلّه، كان وفق ملاحظات الحارس يسكن في الجوار، الذّي مقداره وللأسف أكثر من أربعة كيلومترات، عليه أن يقطعها سيراً على الأقدام أو على درّاجته الهوائيّة على أحسن تعديل، وبما أنّ يديه مشغولتان على

التناوب بحمل كأس الماء ذي الملح المذاب، الذّي يستخدمه للمضمضة المتكرّرة لتخدير الأسنان، وللتّخفيف من الألم، بناءً على نصيحة الحارس، فقد كان من المتعذّر عليه أن يقود درّاجته، وعليه بالضّرورة بناءً على ذلك أن يقطع البساتين سيراً، تحت وطأة ألمه، وبيدين مشغولتين بحمل كأسٍ يتمضمض من مائه كلَّ بضع دقائق.

ابتسامة الطّبيب الأشيب المكتنز الأعضاء، البشوش المحيّا، خفّفت من وطأة ألمه، ومن مشقّة رحلته الطّويلة، وكانت أوّل ما قابل بعد انتهاء رحلته المعنّاة، كانت يده اليمنى بشكلٍ خاصٍّ متشنّجةً من حملها للكأس لمسافاتٍ طويلة، وضع الكأس الزّجاجيّ الذّي فرغ للتّوّ من مائه على أوّل طاولةٍ وجدها، واستلقى بتمطٍّ منهكٍ على كرسيٍّ العلاج، حتّى دون أن يومئ له الطّبيب بذلك، فألمه أنساه كلّ استراتيجيّات الذّوق واللّطف، بل حتّى أنّه قد شغله عن متابعة حشرات الفاكهة التّي مرَّ بها في أثناء رحلته عبر الحقول والبساتين.

وبدأت رحلة العلاج بالإجراء الأوّل الذّي يفضّله وينتظره منذ ساعات، بالمخدّر والتّسكين، حقنه الطّبيب الذي أخذ ملاحظاتٍ سريعةً عن تاريخه المرضيِّ من خلال جملٍ قصيرةٍ ومتلاحقةٍ قالها ملخّصاً تاريخه المضني مع ألم الأسنان، وأنهاها بذكر اسم طبيبه، وأسماء الأدوية والمسكّنات التّي تواتر عليها أثناء علاجه السّابق وقبل السّـــابق، وبعد معاينةٍ متفحّصةٍ، راقب فيها عينَيّ الطّبيب الأشيب،

المنزلقتين في تجويف فمه؛ بحثاً عن موطن الألم وسببه، استلّ الطّبيب حقنةً مخدّرٍ واثنتين وثلاث، وحقن لثّته بهنّ، وقليلاً قليلاً، بدأ الألم بالفتور، وأصبح من الممكن أن يتملّى في وجه طبيبه شبه المسن، الذّي أسند كفّي يديه على خاصرتيه، اللّتين تعلوان قدمين منفرجتين بثباتٍ على الأرض، وهو ينتظر أن يسري المسكّن في سائر لثّته كي يبدأ طقوس العلاج والحفر والتّرميم، كما أصبح من الممكن أن يدير نظرةً متفحّصةً في العيادة الصّغيرة، التّي تحتوي على القليل من الأدوات النّظيفة، والأثاث الرّيفيّ الأنيق الذّي لا يخفي ذوق صاحبه.

وجّه الطّبيب البشوش بضعة أسئلةٍ له، أجاب عنها باقتضابٍ وفتورٍ وتراخٍ، بعد أن بدأ المخدِّر رحلته بالتّسكين، شعر أنّ أطرافه تتراخى، وأن فمه قد تضخّم بمقدار عشرات المرّات، وشفته السُّفلى تراخت حدّ التّدلّي، كاد يرى شفته العليا المتضخّمة أسفل عينَيْه، وبات يُحسُّ كلّ أديم وجهه وشفتيه يمتدُّ لمسافة مترٍ أمامه على الأقل، وبدأ بريقٌ ما يلوح في عينَيْه، فيرى ومضاتٍ غريبةً تحول دون رؤية وجه طبيبه المحاصر بقناعٍ طبّيٍّ أبيض لا يسمح إلاّ برؤية عينَيْن شهلاوتين، وفي سحيق الوميض، يرى عينَيْها اللّتين تتزرعان في وجهها الملائكيِّ، المقيّد في داخل إطار صورةٍ فضيٍّ، مركونٍ باهتمامٍ على مكتب الطّبيب، سأل الطّبيب في سكرة المخدّر، "من تكون؟" أجاب الطّبيب بنبرةٍ آليّةٍ غير مبالية إلاّ بعمله وبجهازه الدّقيق الذّي يُعمله في إحدى الأضراس: "إنّها زوجتي . . ."

إذن . . . هي زوجته، ولكنّ عينَيْها هما العينان اللتان حلم بهما طوال عمره، لهما نفس الرّموش، ونفس الصّمت، ونفس النظرة النعسى،بل ونفس البريق الغارق في دموعٍ لا تفارق عميق نظراتها، يا لها من نظراتٍ!! تتسلّل إلى نفسه بين الألم وسكرة المخدّر، فتلهب أضلاعه، وترسل بريقاً يغرقه في وهج عينَيْها، يرى عمره الفائت مكسوراً على بوّابة عينَيْها اللّتين تحرّرتا من الإطار الفضّيّ، وحامتا في سماء الغرفة، كان يترنّح مخموراً بشذاها الأنثويِّ الذّي خلقه في ذاته منذ أن تمنّاها، رأى الماضي والحاضر والمستقبل وكلّ أبحاثه غباراً منثوراً تحت وطأة قدمَيْها اللّتين اشتهى تقبيل أديمهما الورديِّ الرّقيق .

آهٍ كم انتظر وتمنّى هاتين العينَيْن دون كلِّ عيون نساء الدّنيا، رسمهما بتمعّن وقدسيّة من يرسم وجه ملاكٍ، ثمّ حفرهما بتأنٍ في ذاكرته، وأطعم نفسه والتّمنّي للنّسيان وللعمل الدّؤوب الذّي لا يعرف توقّفاً بعد أن يئس من أن يجدهما إثر مطالعةٍ طويلةٍ في كلِّ وجوه النّساء اللّواتي قابلهنّ في أصقاع عمره، وها قد أطلّتا من المستحيل، من بين الألم والنّشوى أطلّتا، وغرق في نومٍ طويلٍ .

عينا الطّبيب كانتا في انتظار استيقاظه، تمتم الطّبيب بكلماتٍ لم يفهمها، ولكنّه قدّر أنّها كلمات تشجيع لتخطّي الألم، ثمّ سمعه يقول بنبرةٍ أبويّةٍ عطوفةٍ: "يبدو أنّ عيار المخدِّر قد كان قويّاً، لذا فقد رحتَ في نومٍ طويلٍ".

هزَّ الرَّجل رأســـــه متفهّماً لما حدث له ، وبنظرةٍ عجلى بحث عن

عينَيْها، فوجدهما مستقرّتين في دعةٍ في وجهٍ ملائكيٍّ ما زال مسجوناً في إطارٍ فضّيٍّ، أبرقت العينان له ببريقٍ سماويٍّ خاطف، صعق جسده من جديد، وعاد إلى نومٍ لذيذٍ لم يعد فيه أيّ أثر للألم.

تردّد أكثر من مرّةٍ على عيادة الطّبيب بحجّة الاطمئنان على وضع أسنانه التّي غادرها الألم تماماً بعد أن فقد سنّاً أخرى في سبيل ذلك، جلس طويلاً إلى الطّبيب اللّطيف الذّي دعاه مرّةً تلو الأخرى لمشاركته شاي الظّهيرة، ووقع في نفسيهما استلطافٌ متبادل، وإن كان في جُلِّ أمره مشدوداً بعنفٍ إلى صورة امرأةٍ لا يعرف منها إلاّ عينَيْها، اللّتين كانت تقولان له بعشق: "انظر، أنا هنا، أنا حقيقة، أقبل؛ لأنّي موجودة".

في كلِّ مرةٍ وعد نفسه الزّائغة تحت وطأة الشّكِّ والخوف أن لا يعود إلى العيادة ، فكيف يمكن أن يكون أسير نظراتٍ متجمّدةً في إطار؟! أسير نظراتٍ رسمها في الخيال، فسعد عندما وجدها حقيقةً في مكانٍ ما في هذه الدّنيا، ولكنه وجدهما أخيراً . . . كانتا في انتظاره منذ دهر، أو كان في انتظارهما منذ دهر، لا يهمّ من كان منتظراً بالتّحديد، ولكن المهم أنّها موجودة في القريب منه، قريبة إلى حدِّ أنّه يمكنه أن يراها بمجرّد أن يقرّر أن يعرِّج على بيت الطّبيب لأيِّ حجَّةٍ يخترعها.

عندها يمكنه أن يقترب منها، وأن يراقب أديمها الفضّيّ الذّي يظهر أعلاه بازغاً من ثوبٍ لا يستر كتفَيْها العاجيّتَيْن، تماماً كما تبدو

في صورتها، ليقول لها: "ها قد جئت . . ." ثمّ يغرق في وميض عينَيْها إلى الأبد . . . هو الآن يعشق امرأةً في صورة، ولكنّه لن يبقى أسير حبٍّ ضبابيٍّ، لن يسمح بأن تكون عينا من يعشق مصلوبتين في صورةٍ إلى الأبد، سيكون صاحب الكلمة الأولى، سيأخذ الخطوة التَّاريخيَّة، سيقول لعينَيْها: "كوني"، فتكونان، سيتحدّى الصّمت البارد، ويشعل فيهما نيران عشقه .

انتظر أن يدعوه الطّبيب إلى بيته، ولكنّ ذلك لم يكن، مع أنّه قد دعاه إلى كوخه المُتواضع أكثر من مرّةٍ على غداءٍ أو على عشاءٍ. حارس البستان همس له قائلاً بصوته المرتجف ذي الزّعيق المزعج: "إنّه رجلٌ غيور، البعض يقول إنّه يحبس زوجته الجميلة في بيته، ويمنعها من الخروج، ويمنع أيَّ أحدٍ من زيارتها".

- "أهي من بنات المنطقة؟"
- "لا . . . الطّبيب وهي كلاهما غريب، جاءا منذ زمنٍ بعيدٍ إلى الرِّيف، وأقاما دون أن نعرف عن تاريخهما شيئاً، الزّوجة يقال إنّها صغيرةٌ وشابّة وجميلة مع أنّي لم أرها أبداً، والزّوج طبيب لطيف يقدّم خدماتٍ أحياناً بالمجان لمن يطلبها من فقراء الرِّيف."
- "وماذا عنها؟ أعني عن الزَّوجة؟"
- "قلتُ لكَ يا سيِّدي إنّني لم أرها لم قبل . . ."

إذن صاحبة العينَيْن المتوهّجتَيْن ليست أسيرة إطارٍ ذهبيّ، بل أسيرة زوجٍ غيور،وبذلك أصبحت مهمّة مقابلتها أصعب، وتحتاج إلى

المزيد من التّخطيط والحذر، فهو يريد أن ينزعها بهدوءٍ ودون أوجاعٍ أو مشاكل من دنياها، لتغدو زهرة حياته، فهو الوحيد الذّي وعدته أحلامه بعينَيْها الأسطوريّتَيْن ذاتي البريق السّاحر .

وجاءت اللّحظة سريعاً، فقد قرّر الزّوج أن يسافر إلى العاصمة في شؤونٍ يقضيها، كان يراقب سيّارة الأجرة وهي تبتعد به، من أعلى قمّة التّلّة المشجّرة رَمَق السّيّارة التّي تثير الغبار والأتربة وهي تختفي به، انزلق مهرولاً إلى بيتها الذّي يقع في سفح التّلّة، الأرض المنحدرة والزّلقة زادت من سرعة هرولته التّي غدت ركضاً سريعاً لا يسمع خلاله إلاّ وقع ضربات قدميه على الأرض، وصوت لهاثه، كانت مستديرةً نحو حضن الشّروق تشيّع بنظراتها زوجها الذّي غدا نقطةً في الأفق، انتبهت إليه مفزوعةً، أمسكَ يديها بحركةٍ نزقةٍ أخافتها، كانت كما تمنّاها تماماً، هادئةً كبحيرةٍ، بيضاء كنور الصّباح، شعرها الأسود معقوفٌ إلى الخلف، بعض الشّيب غزا برقّةٍ وسحرٍ ذؤابتيها، على فمها المستدير كما المتاهة ألف سؤال، أمّا عيناها فلهما البريق المستحيل الذّي عشقه.

قال لها باضطرابٍ شديد: "ها قد جئت . . . أنا أحبّكِ . . . هل تأتين معي؟"

- "مجنون"!!!
- "ولكنّني أحبّكِ . . ."
- "ابتعد عنّي، لا بدَّ أنّكَ مجنون".

وانساحت في موجة بكاءٍ، وطردته مفزوعةً ممَا تسمع، أمضى يومه عارياً إلاّ من سروالٍ صغيرٍ في سريره، لا يصدِّق أنّه قد وجدها، وأنّها بعد كلِّ هذا العناء قد رفضته، بل وطردته، تابع لساعاتٍ طويلةٍ دوائر الدّخّان المتصاعد الذّي ينفثه من سجائره التّي تحترق بمثل احتراقه، فكّر بألف خطّةٍ وخطّة لخطفها، ثمّ انخرط في بكاءٍ مرير، ومن جديد بدأ ألم أسنانه، لكنّه كان مصمّماً هذه المرّة بالذّات على أن يهمله، أن يقهره، أن يفعل أيّ شيءٍ إلاّ أن يستجيب بذلٍّ لجبروته، أخذ جرعةً مضاعفةً من المسكِّن الذّي استغنى عنه منذ زمن، وغاب في دنيا النّوم، وجاءت بابتسامةٍ ساحرةٍ، كان جسدها زلقاً بطريقةٍ مشهيّةٍ، انساحتْ في فراشه، كانت عاريةً كبجعةٍ مسحورة، في بحيرةٍ لازورديّةٍ محاطةٍ بالأحلام والبجعات المتوّجة، غرق وإيّاها هناك، قبّلت عنقه باشتهاء، فتبخّر ألم الأسنان إلى الأبد، تنفّس هواء فمها، وفي لحظاتٍ تحوّل ببريق عينَيْها إلى أمواجٍ ملوّنةٍ تداعب بحيرة صيفيّةٍ هادئةٍ، زرقة عينَيْها انساحت أنهاراً تحاصر جسده المنتشي، وغاب وإيّاها في دنيا من الأطياف الملوّنة، حيث تشظّيا ليغدوا رذاذاً سعيداً يطوِّق فراشه العتيق.

كان قرع الباب قويّاً، تنبّه وعيه عليه، ثمّ استيقظ تماماً عندما دفع أحدهم الباب بقدمه القويّة فكسره، في لحظة أحاط به وبفراشه وبجسده حشدٌ من رجال الشُّرطة بأزواج عيونٍ كثيرةٍ لم يستطع أن يعدّها، البعــض وجَّه له فوّهات بنادق متحدّية، عينـــا الطّبيب هما

العينان الوحيدتان اللّتان ميّزهما من بين العيون المتّهمة الحادّة كما عينَيْ صقر.

قال الزّوج بقسوة: "يا لكَ من مجرمٍ غادر!!"

قال ضابطٌ بحزم: "أنتَ متَّهمٌ بالخطف والاغتصاب والقتل . . ."

بذل جهداً عظيماً ليُحرِّك جفاف حلقه، ولينطق بكلمةٍ واحدة، لكنّه لم يستطع، فقد كان ذاهلاً وهو يتابع جثّتها العارية مذبوحة مضرّجة في دمائها، كان مرعوباً من فكرة وجوده عارياً مع جثّةٍ مذبوحة أكثر من فكرة أنّه متّهمٌ بالقتل، قال بصوتٍ مسلوبٍ يتناوب عليه الخوف والفتور: "ولكنّي لم أقتلها، أنا أحبّها . . . أنا لم أخطفها هي جاءت من تلقاء نفسها".

قال الزّوج بانفعال: "يا لكَ من عربيدٍ قذر . . .!!"

قال الرّجل: "أنا أحبّها . . . أنا لم أقتلها صدّقوني . . . يا ذات العينَيْن المتوهّجتَيْن، قولي لهم إنّني لم أقتلكِ . . . أنا أحبّكِ . . . قولي لهم إنّكِ جئتِ من تلقاء نفسكِ؛ لأنّكِ تعشقينني".

قال الزّوج مُثاراً كما ثور في حلبة: "يا لكَ من وغد!! أتريد أن تلطّخ شرفها، وتلحق العار بها حتّى بعد موتها؟!"

كرّر الرَّجل بعته: "ولكنّي لم أقتلها . . . أنا أحبّها، وهي تحبّني، قولي لهم إنّكِ تحبينني".

لكنّ الجثّة الهامدة المدرّجة في الدّماء لم تنبس ببنت شفة، كان يتابع الجنود بذهول ودهشة وهم يلفّونها بملاءة السّرير، ويدسّونها في

السّيّارة العسكريّة .

هي دفنت في سفح القرية بين أشجار الفاكهة، وهو سجن حيناً، ثمّ أودع مستشفى المجانين حيناً آخر، ولكنّه لم يشتكِ أبداً من ألم أسنانه، فقد كان يزعم أنّ حبيبته ذات العينَيْن المتوهّجتَيْن قد شفتهما بقبلتها المشتهاة، أمّا الزّوج فقد اختفى للأبد، البعض زعم أنّه مات حزناً، آخرون قالوا إنّه هو من قتل زوجته الخائنة، كثيرٌ أكّدوا أنّه يعيش في قريةٍ بعيدة مع زوجةٍ جميلة، يحبسها في بيته ،ويمنعها من الخروج . . . لكنّ العاشق المجنون بقي يبحث عن حبيبته الجميلة، يرتع بين الوديان عارياً بشعرٍ أشعث وجلدٍ مزّقه البرد، يبحث عن امرأته الجميلة ذات العنَيْنَيْن المتوّهجتَيْن، صارخاً بقهر، لتردّد الوديان كلماته التّي تذهب سدىً دون مجيب: "ولكنِّي لم أقتلها، أنا أحبّها، أنا لم أغتصبها، هي أسلمتني نفسها طائعةً، أنا أحبّها . . . يا ذات العينَيْن الجميلتَيْن . . . ها قد جئت، أنا في انتظاركِ، هل تذهبين معي؟ . . . ها . . . أجيبي هل تذهبين معي؟ ها . . . قولي . . . هل تذهبين معي . . . عي . . . عي . . . ي . . ." .

الذي سقط من السماء

قال له زميله الذي اعتادوا على أنّ يسموه الذيل لشدة نفاقه، وهو متبرّم بوجهه المكسو بالشماتة:" أنت يا رجل والله ساقط من السماء ولست من الأرض ، أرأيت آخر عنادك؟ الآن ليس لك إلا أن تسفّ التراب مع بنيك، أو تعود إلى السماء من حيث سقطت ، فنحن البشر لا نشبهك ، أشباهك فقط في السماء ، أمّا هنا على الأرض فالسكان مختلفون تماماً ،وتذكّر دائماً يا صديقي أنّ من يسقط من السماء تدّق عنقه بالذات إن كانت تحمل رأساً عنيدة مثل رأسك".وعلت ضحكاته ،وابتعد وهو يتصنّع التمايل كمومسات العاصمة .

"هل أنا ساقط حقاً من السماء؟ " سأل نفسه المثقلة بالهمّ ،عاد وقال لنفسه " لكن الطيبين فقطّ هم من يسقطون من السماء، هكذا قالت لي جدتي،وجدتي لا تكذب" أيّاً كانت الإجابة فعليه أنّ يرحل عن عمله ،وهو يحمل الخزي والعار ، هو الرجل الشريف

المخلص الذي أمضى حياته يحارب الفساد ، سيُطرد بتهمة السرقة ، وسيُعيّر أبناؤه به ، ويصبحون أبناء اللص ، شعر بغصّة تكاد تقتلع روحه ، ابتسم بقهر وهو يغالب الدموع ، كان يعلم أنّها مؤامرة ؟ ولكن من سيكذّب أولئك الوحوش الذين حاكوا المؤامرة ضده لإقصائه عن عمله الحسّاس في قسم الحسابات، ويصدّق رجلاً قالت جدته له يوماً:" إنّه قد سقط من السماء" .

قالت له ذلك في ليلة لن ينساها ما بقي في إسار الحياة ، كانت صرخات حادة تتشقّق عن نفس أضناها الألم، وتكاد تتساقط أنفساً قبل أنّ تدفع إلى الحياة الطفل الذي في جعبتها ، كانت صرخات الجارة أم إدريس ، التي اعتادت سنونه التي تحصى على أصابع يديه الاثنتين أنّ تسمع صراخها في كلّ عام ، وبعد ساعات تطول أو تقصر من العويل والاستنجاد وسبّ الداية يسمع الزغاريد ، تُقدّم له ولأطفال الحارة بعض السكاكر الرخيصة ، ويسمعهم يقولون :" الله بعث عريس ، أو الله بعث عروس". لكن ذلك الصراخ الليلي بدا أطول من الصراخ الذي اعتاده في السنوات السابقة من عمره اليافع. الدايّة وبعض نساء الحي وزوجة أبيه أم حمدان كُن في حضرة الولادة ، ليلتها انسلّ من فراشه كالمضبوع بهذا الصراخ الذي يبدو أنّ لا نهاية له ، ودلف دون استئذان إلي بيت الجارة المتّقد بالصراخ.

أراد أنّ يكتشف منبع الألم،كان جسده الصغير ينساب بسهولة بين النساء المشغولات عنه بأم إدريس يساعدنها ما استطعنَ إلى ذلك سبيلاً،دفع برأســـه من باب الحجرة،وأصـــبح الرأس وحده دون الجسد

في الحجرة الصغيرة التي تضجّ بالحرارة والألم ، بحث بعينيه عن أمّ إدريس ، كانت مسجّاة بين يديّ الداية ، هناك سمع آخر الصرخات وأصعبها ، ثم انشقّ الجسد الذي كان يتابعه بذهول عن كتلة ملطخة بالدماء والأوساخ ، تلقتها سريعاً يدا الداية ، كانت كتلة لحمية تتزلق في زلالها اللزج كالبزّاق ، وانقطع الصراخ الأوّل ، وبدأ صراخ صغير عاجز ، جزم أنّ مصدره قطعة اللحم الوردية التي انشقّ عنها جسد أم إدريس.

لم يحدّث أطفال الحارة عن سرّه الخطير الذي حظي به على غير عادته ، تلك ليلة لم ينسها أبداً ، وحفرت في ذاكرته ، كان الوحيد من أطفال الحارة على حد علمّه الذي يدري من أين جاءت قطعة اللحم الوردية التي أسموها صباح ، وكان يتساءل في نفسه بدهشة الطفولة البريئة كيف تستطيع أمّ إدريس أنّ تسير بهذه الأريحيّة، وهي تملك ذلك الجرح العظيم الذي رآه في تلك الليلة؟!!

لأيام طويلة كان يراقبها بفضول ،ويتوقّع أنّ تنزلق أحشاؤها أرضاً من ذلك الجرح ، ولكن ذلك لم يحدث ، بل عاد بطنها ليتكوّر من جديد ، ومرة أخرى سمعهم يقولون:" أمّ إدريس تتوحّم."

مراقبته الطويلة والفضولية لأمّ إدريس جعلته يدرك أنّ النساء تحبّ تلك القطع اللحمية التي تتقدّد أجسادهن عنها ، كثيراً ما راقب أم إدريس وهي تدُسّ ثديها الكبير في فم الرضيعة صباح ،وتداعب خصلات شـــعرها ، وتغضب أشـــــد الغضب إذا حاول أحد أطفالها

مقاطعة تلك العملية الهانئة التي تسمى الإرضاع ، اعتاد أن يراقبها من فوق سور بيتهم القديم المطلّ على فناء بيتها ، ومن ثم طفق يراقب تلك الحركات الدافئة والحميمة التي تربط نساء الحارة بأبنائهن وبناتهن في نغمة وجودية خالدة ، لم يعزف يوماً عزيفها ، ولم يشارك في سجع ودادها ، وبات يرثي لنفسه المعرّاة من هذا الحنان ، كم تمنّى لو أنّ له أمًّا مثل أم إدريس ؛ كي تحضنه كما تحضن صباح ، أو كي تفلّيه كما تفعل زوجة عمه صبحية مع ابنها رزق ، أو كي تخصّه بالبيض البلدي كما تفعل أم حمدان مع بنيها ، التي اعتاد أنّ يدعوها أمي كلما أراد أنّ يخاطبها نزولاً على رغبة والده وأعمامه.

لمدّة يومين لم يعد إلى البيت إلاّ في المساء ، توقّع أنّ يُضرب بشدة بحزام والده الجلدي بسبب تأخره ، لكن أباه اكتفى بيسير الصراخ عليه ثم تجاهله ، كان يشعر بالجوع والإعياء ، فهو لم يأكل منذ يومين ، ولم يعنّ أحدٌ نفسه بالسؤال إنّ كان قد أكل أم لا . الأمهات هنّ المعنيات بالقطع اللحمية التي يتفتّقن عنها ، في تلك الليلة بكى ؛لأنّه ليس قطعة لحمية تخص امرأةّ بعينها.

عندما حضنته الجدة ميمونة إلى صدرها الكبير المتهدّل الدافيء شعر بشيء من الطمأنينة ، ولكن حنينه بقي إلى امرأة قد تفتّقت عنه ، ألقمته الجدّة قطعة (الحلقوم) التي ادّخرتها له خِلسة عن صغار البيت ، أكلها وهو يتنشّق دموعه ، ويكفكفها مع سيل مخاطه ، دثّرته الجدّة بطرف ثوبها ، واشـــتملت سنينه الخمس بعطفها ، ســـألته عن

أحوال أصدقائه في الحارة ، ولكنّه لم يجب ، تجّرع دموعه من جديد ، وقال لها :" جدتي ، لماذا ليس لي أمّ ؟؟".

طبعت الجدّة قبلة سخينة ملؤها الحب والشفقة على جبهته المتعرّقة ، ونحّت عقارب شعره التي تتدلّى على عينيه بلا نظام، وقالت له بجهد من يبحث عن نجمة في السماء : "أمك في السماء ؟"

قال لها الطفل بدهشة بريئة :-"ماذا تفعل في السماء ؟"

- "هي عند الله."

- "ولماذا هي ليست هنا مثل باقي نساء الحي؟"

- "لأنّها مرضت ثم ماتت."

قال بنبرة معاتبة متهمة :" ولماذا لم تعالجوها كما عالجتم أم إدريس؟".

قالت الجدة بحزن تستره بجهدٍ واضح:" عالجناها طويلاً ، ولكنّها ماتت في النهاية".

- "وهل أحبتني قبل أن تذهب إلى السماء؟"

- "نعم."

- "ولماذا لم تأخذني معها؟ ألم تقولي أنّها أحبتني؟"

- " لقد أخذتك معها ."

- "وكيف عدتُ إلى هنا؟"

- "سقطتَ منها فتلقفتك ، ومن ذلك اليوم أصبحت حفيدي."

- "ولماذا سقطتُ؟"

برمت الجدة شفتيها، وقالت بهدوء إيقونةٍ عمرها ألف سنة :" الطيبون فقط هم من يسقطون من السماء".

- "والأشرار يا جدتي ألا يسقطون من السماء؟"

- "الأشرار يا بني لا يكونون في السماء ، هم هائمون في الأرض."

- قال الطفل بغبطة واعتزاز ظاهر :" هل أنا طيب يا جدتي؟".

- "كلّ الذين يسقطون من السماء طيبون يا ولدي."

فجأة توقّف هدير أسئلة الطفل ، شفط بشهيقه سيل مخاطه الذي يخترق عرض وجهه البيضوي ، فارتد معظمه إلى أنفه ، ومسح دموعه، وقال بنشوة من وجد كنزاً : "جدتي أنا إذن ساقط من السماء؟".

قالت الجدة براحة من توقفوا عن جلده :" نعم يا بني الصغير .. أنت ساقط من السماء ".

كان يعلم أنّه لم يسقط من السماء ، وكان يعرف أنّ جرحاً ما قد تفتّق عنه ، دائماً كان يرى نفسه في المنام قطعة لحم يلثمها فم دافيء حنون كالسكر يُسمى أمّ . عندما كبر أخذ يصارع الفساد في كلّ مكان ولا سيما في عمله ، نعته أحدهم ساخراً :" بأنّه من سكان الفضاء " فقط ؛لأنّه أمين ومخلص.

في ما بعد قيل له إنّه لص ، لم يُدهشه أن يُنعت بنعت لص ،

بقدر ما أدهشه أنّه آخر من يعلم بذلك ،لكن عندما تحسّس جيبه ،وتذكّر أنهّ لا يحوي إلا بضعة قروش شعر بشهوة غريبة للبكاء. وعندما سأل عن مصدر الثراء المفاجيء الذي نزل على مديره في العمل بعد أن تولّى مقاليد منصبه الجديد ، قيل له : "إنّ ثروته هبطت من السماء ". حينها ترددّ في سمعه صدى سنوات طويلة تحمل صراخ أم إدريس ، تمنّى لو أنّ له أماً يبكي في حضنها ، وأيقن أنّ الطيبين فقط هم من يسقطون من السماء ، ولكن ليس في أحضان جداتهم الطيبات ،وإنّما على الأرض الصلدة لتدقّ أعناقهم دون رحمة، أمّا الأشرار فيعيثون فساداً في الأرض.

أرض الحكايا

عندما كنتُ صغيراً كنتُ أحسب أنّ هناك أرضاً للحكايا نستطيع أن نحصد الحكايا منها أنّى شئنا، ولكن عندما كبرت أدركت أنّ لا أرض للحكايا، وعندما احترفت فن كتابة القصة جزمت بعناد الأطفال أنّ هناك أرضاً للحكايا، ولكن طوبى لمن يستطيع أن يدلف إلى تخومها، ويعرف السبيل إليها.

منذ أشهر لم أستطع أن أقرن كلمة إلى أخرى،وكدت أظنّ أنّ النفح الذي يسكنني من تلك الأرض قد رحل سحره من نفسي إلى الأبد، وما كنت لأبالي بذلك؛ لأنّ عندي من المهام والمسؤوليات ما يجعلني لا أعير قلقاً أكثر من لحظات يومياً لهذا العجز المفاجىء.

المهندس كرم هو صديقي العزيز، لكنّه كاذب كما اعتدت عليه، والحقيقة انني استلذّ كذبه وألاعيبه، ولكنّني أمقت كذبه هذه المرة بالذات ، وأتمنّى لو أنّني عملاق جبار يطوي المسافات العظام في دقائق؛ لأمسك برقبته وأفصلها عن جســـــده عقاباً على هذه الغرفة

القذرة، قال لي عندما قرّرت أن انتقل لمدة شهرين إلى فرع الشركة البحري إنّه يملك شقة تطلّ على البحر، ويستطيع أن يعيرني إيّاها، ولكنّني لم أجد سوى جحراً خشبياً قذراً، يطلّ على الشاطىء ولكن من بعيد، يزحمه صوت البحر وحركة الحافلات والسيارات والمشاة ؛إذ إنّه يقع قبالة أحد مواقف الحافلات، ليس له شرفه بالمعنى الدقيق، بل نافذة خشبية قديمة بزجاج مكسور، وليس فيها أي وسيلة من وسائل الترفيه.

أمضيت اليوم الأول في السرير أتأفّف من صوت الزحام، أمّا اليوم الثاني والثالث فلا أذكر منهما الكثير عن علاقتي بالغرفة؛ لأنّني كنت أعود من عملي متعباً بالكاد أتلمّس فيها طريقي إلى السرير. أمّا اليوم الرابع فقد صادف يوم عطلة، فكّرت في أن أقوم بجولة في المدينة، ولكن الكسل غلبني، فقرّرت أن أقضي اليوم أمام النافذة اختلس النظرات إلى البحر والمشاة وقاصدي الموقف ،وأحرق السجائر خلال هذه المتعة المتواضعة. اللحظات الأولى كانت مملّة، ولكن ذلك السلّم المؤدي إلى الساحل الممتد حتى المنارة والشاطىء الشرقي لفت نظري، فقد كانت الحركة رتيبة وكسولة فيه، وقليلاً ما كان يلفظ بعض أولئك الذين غادروا الشاطىء الشرقي حيث لا شيء غير الوحدة والانعزال والصخور والمنارة والوقوف في أعلى السلم قريباً من الموقف في انتظار حافلة تقلّ إلى مكان ما.

راقبت ذلك السلم المؤدي إلى المنارة طويلاً،عامل المنارة هو أكثر

من لفت نظري، كنت قد عرفتُ من قبل أنّه عامل المنارة عندما أشار إليه أحد زملائي في العمل ،وقال: "إنّه رجل مجنون، يسكن المنارة المعطّلة منذ سنوات، ويقضي ليله في السير على الشاطىء ممسكاً مصباحاً يدوياً،، أمّا نهاره فيقضيه متنقلاً بين صخور الشاطىء الشرقي كأنّه يبحث عن شيء ما، قلما يغادر ساحل المنارة، وقلّما يحدّث أحداً".

لكنني لاحظتُ بخلاف ما قال زميلي أنّه كثيراً ما كان يرافق زوّار شاطىء المنارة القليلين إلى أعلى السلم الحجري حيث الموقف، لا أراه يتكلم ولكن من بعيد أقدّر أنّه يسمعهم باهتمام، يومىء لهم برأسه، يحدثّونه طويلاً، ومن ثم يعود عامل المنارة العجوز، المنحني القامة، إلى منارته عبر طريق صعب بين الصخور الكبيرة التي يضرب البحر بعضاً منها، وكأنّ أحداً لم يزره في هذا المكان من قبل.

منذ ذلك اليوم اعتدتُ على مراقبة السلم الحجري من نافذتي القديمة، كثيراً ما حاولتُ أن أسمع ما يقول الزوّار له، لكنّ صوت البحر وجلبة المارّة، وفوضى الحافلات جعلت ذلك مستحيلاً، واكتشفت اكتشافاً أثار اهتمالي، فقد كان زوّار شاطىء المنارة زوّاراً غير متوقعين عند عامل المنارة، فكثيراً ما لاحظت في أيام العطل وفي الصباح الباكر أنّ أولئك الزوّار عادة ما يأتون فُرادى، طريقة مشيتهم وتخبّطهم تدلاّن على أنّهم يزرون المنطقة لأوّل مرة، يجلسون على الصخور وحيدين، وأخيراً يُطلّ عامل المنارة عليهم،يجلس غالباً إلى

جانبهم، فتقابلني ظهورهم التي يواجه باطنها البحر لساعات طويلة، إذن الزوّار هم أناس يلجؤون إلى البحر هرباً من فوضى الحياة، وعامل المنارة هو سفير البحر إليهم .

حاولت أن أعرف بعض المعلومات بدافع الفضول عن عامل المنارة، لكن الجهل به كان الجواب ،فضلاً عن نعته بالمجنون. موظف مسّنٌ في الميناء قال لي:" إنّ عامل المنارة له قصة حزينة، فقد أحبّ فتاة من المنطقة دون أن تعلم بحبّه، ولكنها ما لبثت أن انتحرت لسبب مجهول قريباً من صخور المنارة، منذ ذلك اليوم سكن المنارة، وطفق يبحث عن جسدها بين الصخور ليلاً، ويناجي البحر لعلّه يلفظ جسدها الذي ابتلعه، ولكن دون جدوى، هو رجل مجنون من دون شكّ ،ولكنّه مسالم".

فكّرت في أن أذهب إلى الصخور كي أحدّث عامل المنارة، ولكنّ المفاجأة منعتني عن ذلك، فمنذ ذلك الحديث الذي دار بيني وبين العجوز في الميناء دلفت إلى أرض الحكايا، في كلّ ليلة كنت أكتب قصة أو قصتين أو أكثر، ذلك يعتمد أساساً على زوّار المنارة، أراقبهم دخولاً وخروجاً، أحفظ حركاتهم وصفاتهم، أتابع انفعالاتهم ونظراتهم، أتابع حركة أفواههم وهم يحادثون عامل المنارة، افترض حديثا ً معيناً وَفْق صفاتهم وأشكالهم، وأعمارهم، أشيّعهم وهم يبتعدون في الحافلة نحو البلدة، بعد ذلك أسرع إلى القرطاس والقلم،

وأكتب قصة كاملة تدور حول زائر اليوم، و أحاول أن أخمّن أيّ الأحزان تسكنه ،وأيّ الكلام أسرّ به إلى عامل المنارة، وأحصل أخيراً على قصة رائعة.

بعد شهر كان عندي مجموعة قصصية رائعة أسميتها (أرض الحكايا)، كلّها مستمدة من القصص المفترضة لزوّار المنارة، خشيت أن اقترب من عامل المنارة فتغلق الأرض أمامي، وأعود من جديد إلى الجدب والقحط، في عطلة نهاية الشهر لم أعد إلى العاصمة، فقد كان من الصعب علي أن أترك نافذتي السحرية التي تطّلّ على أرض الحكايا، كنت مأخوذاً بفكرة الكتابة، فقد أصبحت صديقاً مجهولاً للزّوار، ودخلت دنيا أحزانهم دون استئذان.

ذلك العجوز الذي زار البحر تخيّلته رجلاً قد خطف الموت زوجته الرؤوم، ويحنّ إلى ابنته المسافرة،، تلك المرأة الوحيدة لعّلها تحنّ إلى رجل يدلف إلى حياتها، تلك الشابة الصغيرة تخيلتها تنتظر حبيباً سافر ولم يعد، تلك المرأة المسنة التي تمسك بطفل صغير تحنو عليه ،قد يكون صغير ابنها الذي استشهد في ساحة الجهاد المقدّس،وتناجي روحه الغارقة في البحر، تلك الحامل الحسناء خلتها تشكو فضيحتها إلى البحر ،لعلّه يصبغ عليها بعضاً من طهره ورحمته، الصبي المراهق الذي هناك لعلّه ينتظر جميلته الصغيرة على البحر، وذلك الرسّام يرسم لوحة للبحر ،لعلّه سيرسلها إلى حبيبته المسجونة خلف أسوار غنى والدها، الآف الحكايا كانت في أرض الحكايا، أعني على صخور شاطىءالمنارة.

المنارة أصبحت شهوة تغريني بالاقتراب منها، قاومت ذلك كثيراً ،لكن في النهاية انتصرت الشهوة ،و تسلّلت إلى الصخور ،أردت أن ألقي نظرة فضولية على المكان، ثم أقفل راجعاً دون أن أزعج عامل المنارة، لكن وجهه القاحل الذي لوّحته الشمس كان أول ما رأيت في المنارة، ارتبكت بشدة، لم أعرف ماذا أقول، وبماذا أعلّل فضولي، ولكن نظراته الهادئة وقسماته الساكنة التي تدّل على أنّه قد اعتاد على الفضوليين هدّأت من روعي، قلت له بتردّد:" مرحباً...أرجو أنني لا أزعجك".

لم يردّ، مددّت يدي لمصافحته ،وقلت له بنبرة أكثر جدية:" أنا المهندس محمود، تشرّفت بلقائك" عندها مدّ يده النحيلة وصافحني، ثم أومأ لي بأنّه لا يتكلم ولا يسمع، يا الله كم كانت صدمتي!!! الآن فقط عرفت سر لجوء الزوّار إليه، لأنّه مثل البحر لا يسمع ولا يتكلم، ولكنّه على الرغم من ذلك حاضرٌ بكلّ ما في الكلمة من معنى، يلقيون إليه بأسرارهم، ويعودون متخففين منها.

على غير ترتيب مسبق قضيت ظهيرة ذلك اليوم مع عامل المنارة على الصخور، حدّثته عن حياتي وعن أحزاني ،حدثته بحديث لم أحدّث نفسي به من قبل، بقي إلى جانبي، سمعني طويلاً،أو على الأقل تخيّلت أنّه سمعني طويلاً، لأكثر من مرة غسلت أمواج البحر شـــيئاً من أقدامنا، في المســـــاء سرت وإيّاه حتى الموقف، من هناك

نظرت بفضول إلى نافذة غرفتي، حاولت أن أراني، ولكنني لم أكن موجوداً على ما يبدو، لا بد أنّني الآن في أرض الحكايا، هذا غاية ما حلمت به، أن أكون حكاية من حكايا أرض الحكايا.يالحمقي!! كيف لم يخطر في بالي أنّني حكاية من أرض الحكايا؟!!صافحت عامل الميناء بحرارة ،واجتزت الشارع ،تساءلت طويلاً في نفسي وأنا في طريقي إلى البيت :"أيّ الحكايا كانت حكاية عامل الميناء الصامت رغم أنفه؟" دلفتُ إلى البيت، جلست إلى الطاولة، راقبت البحر من مكاني عبر النافذة، وشرعتُ أكتبُ إحدى حكايا أرض الحكايا، ... بدأت أكتب حكايتي...

مدينة الأحلام

فقط عندما تتوحّد الاحلام وتتشابه تفاصيلها تصبح حقيقة، وبكلمة سحرية قوامها التمنّي والمناجاة الجماعية تلفظ البشرية جمعاء طلسم الوجود، فينشقّ البحر رغم أنفه، ويتمخّض بقوة، ويدفع من أحشائه الراكدة ومن زبده المستلقي في هشاشته مدينة الأحلام التي تتهادى على صفحاته ،وتستقرّ في بقعة ضوئية يكسوها ضوء القمر الصيفي بوافر نوره. كانت ليلة لا تختلف عن أيّ ليلة من تلك الليالي التي عرفتها البشرية عبر تاريخها المديد الغابر، إلاّ أنّ البشرية في تلك الليلة وفي لحظة واحدة وبفمٍ واحدٍ ينقسم بين مليارات الأفواه والقلوب والأمنيات والأعراق والألوان تمنّتْ أن تتحقّق أحلامها، تمنّت أن تصدف أمانيها أمامها تماماً، لتذوق طعم ذلك البعيد الذي باتت تتحرّق إليه، وتصبو إلى ضمّه، وتعلّق السعادة على وجوده وتسميه أحلامنا!!!

عندما برزت مدينة الأحلام إلى حيّز الوجود المــدرك، اختلفت

نواميس الطبيعة، ودبّت الفوضى في النظام الكوني، كثير من الكواكب غادرت مكانها، بعض البحار غارت في قلب الأرض، وجبال أخرى برزت حيث لا يجب أن تكون، تقاربت مسافات الأرض، وانكمش أديمها، وبات الكون يتلخّص في مدينة الأحلام والبشر الذي يتدافعون نحو هذه المدينة، التي نودي في أهل الأرض إنّه آن لهم أن يدخلوا إلى هذه المدينة التي تحوي أحلامهم، بعد أن فكّوا جميعاً وبلسان واحد طلسم بواباتها التي ستُفتح لهم لأول مرة منذ الخليقة؛ ليحصلوا على أحلامهم وليغادروها آمنين، وقد نالوا رغبتهم الأزلية، أي أحلامهم.

في البدء لم يصدّق البشر نداء السماء، وشعروا بتوجس وريبة، بعض المحبطين والشجعان ورجال الاستخبارات دخلوا تلك المدينة على مضض، كان الكلّ مدجّجاً بالخوف والطمع. في تلك المدينة كانت الأحلام تنتشر في كلّ مكان، منضدة في رخاوة محّار الأصداف، كم كانت الأحلام جميلة ودافئة ولها بريقٌ مائي، وطعم حلو ،وملمسٌ حنون!!! كلّ حلم كان ينتظر صاحبه ، وكانت الطرق تتداخل وتتباعد وتتقارب ؛لتوصل ضيف المدينة بكلّ يسر إلى حلمه.

خرج الرّواد الأوائل مبتهجين، يحملون أحلامهم، بعض منهم حملته أحلامه،" إذن فقد نالت البشرية حلمها الأرضي" ردّد البشر تلك الجملة المغمورة في أكسيد السـعادة و بكلّ اللهجات والنبرات

والأصوات، وتدافع البشر إلى مدينة الأحلام. كانت المدينة صغيرة ذات أسوار بلورية،وقبة شفافة تتراءى السماء والقمر والنجوم في أعلاها، ولكنّها كانت تتسّع للبشر أجمعين كما اتسعت طوال وجودها السرّي لأحلامهم ، وإن ابتلعتها دهراً طويلاً، وقلّما لفظت شيئاً منها مكرهة غالباً، راضية نادراً، كان البقاء فيها رائعاً، كانت تشبه مِزقة من الفردوس الذي سمعوا عنه طويلاً في كتبهم ومن أنبيائهم، لكن فرحة لقاء الأحلام كانت أعظم وأبلغ أثراً وأدعى لهم للخروج بها إلى الحياة.

خرج البشر من المدينة الحالمة، كلّ يحمل على عاتقه ،حلمه المحفوظ في طاقة من زبد البحر، كانوا يشعرون أنّ للحياة طعماً آخر، ومن تلك اللحظة بدأ تاريخ جديد للبشرية، بعض المؤرخين أسماه زمن الأحلام، وبدأت الأيام تُحصى منذ ذلك اليوم. في زمن قليلٍ كان البشر قد تقاسموا أحلامهم، وهجروا مدينة الأحلام، التي بدت خالية من البشر، ولكنّها ما تزال تمور بالأحلام التي تتجدّد ،ولا تعرف نهاية كما لا تعرف بداية.

بعض البشر عادوا من جديد، وبحثوا عن أحلام جديدة وحصلوا عليها، ثم عادوا مرة ثالثة ورابعة، بعضهم بدّل حلمه في طريق العودة ،وعاد من جديد يبحث عن حلم آخر، وبقيت المدينة كريمة لا تبخل على أحد بدخولها، ولا تضنّ على إنسان بحلمه.

في البداية غمرت الســـعادة البشرية التي لطالما تنفّست المدينة زفير

راحتهم وطمأنينتهم ورضاهم، وردّدت رجع صدى أحلامهم. لكن ماذا بعد؟ لم يعد تحقيق الحلم بمستحيل، ولا تجديده بممنوع، ولا استبداله بمرفوض، كلّ شيء كان موجوداً حتى المستحيل. ولم يعد هناك معنىً للحياة ولا للزمن ولا للعمل ،بل لم يعد هناك معنى للوجود، وغرق الزمن في رتابة لم يُعرف لها مثيل، ولا لسلطانها حدود، وغدا حلم البشرية أن تجد حلماً لا يتحقّق ؛لكي تلهث وراءه باشتهاء. وأخيراً شعر البشر أنّ مدينة الأحلام قد حطّمت أحلامهم وحرمتهم من متعة ممارسة التمنّي، ومن دبيب سعادة الجري وراء الأحلام، وفي صوت واحد ومن جديد تمنّى البشر أن تختفي مدينة الأحلام.

ومن جديد فكّت البشرية طلّسم الوجود، وابتلع البحر على هوادة مدينته السحرية، وغاب القمر عن صفحته اللامعة، كان البشر يشهدون اختفاء المدينة، لكنهم اكتشفوا لاحقاً أنّهم ما يزالون محبوسين مع أحلامهم، غابت مدينة الأحلام، وخلّفت الأحلام وراءها،، كان لأحلامهم سِحنٌ لم يلاحظوها من قبل، طاردتهم طويلاً، وأرهقت أجسادهم ،وعذّبت أرواحهم، عرفوا أنّ الأحلام تغدو كوابيس بشعة إن حُبس الإنسان معها، وأصبح عبداً لها. ومرة أخرى تمنّوا من جديدٍ بلسان واحد أن تظهر مدينة الأحلام من جديد؛ ليردّوا إليها كلّ الأحلام والأمنيات، ولكن البحر صمّ أذنيه عن أمنيتهم،ولم يسمعوا داعي السماء، وأدركوا متأخرين أنّ الأمنيات تتحقّق مرة واحدة وحسب.

البلّورة

وجدوه منتحراً، وعلى شفتيه ابتسامة غريبة، وإلى جانبه قصاصةً كُتب عليها بخطٍّ واضحٍ ومنمّق: "إنّنا محبوسون دون أن ندري"، وإلى تحت عبارته المثيرة رُسم وجهٌ لرجلٍ ضاحك، ابتسامته العريضة تشقّ وجهه كاملاً، وتمتدّ إلى أذنيه الكبيرتَيْن. برم الشّرطيُّ شفتَيْه عجباً ممّا قرأ، ومدّ بالقصاصة إلى الضّابط المسؤول، الذّي قرأ القصاصة بصوتٍ مسموع، وقال وهو يطوي القصاصة نصف طيّةٍ هازئاً: "أتراه انتحر لأنّه عرف الحقيقة؟ أم احتجاجاً على عدم معرفته لها إلاّ متأخّراً؟"

قال الشّرطيّ المصوّر الذّي كان منهكاً بالتقاط صورٍ لهيئة المنتحر، ولمسرح الموت، ولعلّه مسرح الجريمة كما قد يتبيّن: "لكن ماذا يقصد بكلمة (محبوسون)؟"

أجاب الضّابط الذّي يبذل جهداً كبيراً لإشعال سيجارته من القدّاحة القديمة البالية الرّخيصة النّوع: "لا أعرف، عليكَ أن تسأله".

أجاب الشّرطيُّ المصوّر ضاحكاً كمن يصوّر عروساً لا ميّت: "ولكنّه وضع حدَاً لحياته قبل أن يشرح لنا معنى عبارته"

أجاب الضّابط الذّي يتابع حلقات الدّخّان التّي ينفثها تباعاً من فمه: "ولهذا قد لا نعرف أبداً ماذا عنى بجملته العجيبة".

قال الشّرطيُّ بتحمّسٍ شبابيّ: "قد يكون منتحراً مجنوناً يا سيّدي، أو لعلّه انتحر في لحظة يأس، وقد يكون انتحاره مجرّد غطاءٍ لجريمةٍ مريبة . . ."

"كلّ شيءٍ جائز" أجاب الضّابط بلا مبالاة، وطفق يتفقّد كلّ الموجودات، ويتحرّى أيّ أدلّةٍ قد تفكّ سرّ المنتحر.

استمرّ البحث في قضيّة المنتحر أيّاماً معدودة، وكادت القضيّة تحفظ على أنّها قضيّة انتحار، في ضوء تقرير الطّبّ الشّرعيّ، وبناءً على تفتيش مسرح الجريمة، لولا ظهور عنصرٍ جديدٍ في القضيّة، فقد تقدّم صاحب المتجر الكبير الذّي كان المنتحر يعمل به بشكوى ضدّ المنتحر يتّهمه فيها باختلاس مبلغٍ كبيرٍ من المال، وبتبديده، ويطالب بالتّحقيق في القضيّة، وإيقاف أيّ حصرٍ لإرث المنتحر إلى حين البتّ بقضيّته، وردّ نقوده إليه. وبناءً على هذا التّحوّل الجديد في القضيّة أُستأنف التّحقيق من جديد، وأسندت إليه مهمّة التّحقيق في القضيّة، فلعلّ وراء لغز اختلاس المال تفسيراً لكلّ ما يجري لا سيَما قضيّة الانتحار إن لم تكن اغتيالاً مدبّراً ومدروساً.

بدأ الضابط المحقّق بحثه كالعادة انطلاقاً من السّـــجلّ المدنيّ

والقضائيّ والوظيفيّ للمنتحر، وأحصى كلّ معلومةٍ عنه كبيرةٍ كانت أم صغيرةٍ ، فقد تكون معلومة صغيرة هي مفتاح لغزٍ كبير، كانت حياته عوان بين عاديّة واستثنائيّة، كان شابّاً في آخر الثّلاثينيّات مصاباً بعرجٍ قويّ في قدمه اليمنى، الأوراق ذكرت أنّه عرجٌ خلقيّ وُلد به، لكنّ التّحرّيات أكّدت أنّه عرجٌ خرج به بعد قضاء فترةٍ في معتقل (ق.ك) في بلدٍ ما، قد يكون البلد الذّي لفظه، درس العلوم السّياسيّة ثمّ انقطع عنها بسبب مرضٍ ألمّ به، هذا ما ورد في الأوراق الرّسميّة، إلاّ أنّ التّحرّيات أكّدت أنّه درس الأدب الإنجليزيّ الذّي أحبّه دائماً، وانقطع عنه بسبب تهمةٍ سياسيّةٍ ظهرت على حين غرّة، واتّهم بها عقب مشاركته في مظاهرةٍ طلاّبيّةٍ وطنيّةٍ احتجاجاً على رفع سعر البسكويت ماركة (شاؤول) التّي يفضّلها.

كان رجلاً وحيداً يسكن بيته القديم الذّي ورثه عن خالته التّي ربّته منذ أن كان صغيراً، لم يستطع أن يعرف أيّ معلومةٍ عن عائلته سوى اسم أبيه وأمّه وعائلته، ومعلومة تذكر أنّه وحيد عائلته، وبخلاف ذلك لم يجد إلاّ معلوماتٍ حول تاريخ ميلاده، وتاريخ التحاقه بالجيش، وتاريخ اعتقاله، وتاريخ الإفراج عنه، ومكان إقامته.

أمّا ما حقّقته التّحرّيات الشّخصيّة عن المنتحر، فلم يفضل ما وجده من معلوماتٍ رسميّةٍ مدوّنةٍ عن المنتحر، فالكلّ من جيرانٍ ومعارف وزملاء في العمل ذكروا إنّه رجلُ مغلقٌ على نفسه، متقوقعٌ

على ذاته، لا يُعرف له شرٌّ أو خير، وإن أكّد البعض أنّه كان من الذّين يدسّون بعض الصّدقات في أيدي المحتاجين والفقراء بصمتٍ وعجلة، قضيّة الصّدقات قادت التّحرّي إلى وجهة الحالة المادّيّة للمنتحر، كشفه الذّاتيّ كان يشير صراحةً إلى حياةٍ شبه معدمةٍ خلا بيتٍ قديم، ورصيدٍ متواضع في البنك يمكن ادّخاره عبر سنواتٍ طويلة من أجر عملٍ كالذّي يعمل به، إدارة البنك أكّدت عبر كشفٍ مفصّلٍ ومؤرّخٍ أنّ المنتحر كان قد سحب كلّ ادّخاراته المتواضعة قُبيل انتحاره بشهرين. وبذا ظهر لغزٌ جديد في القضيّة، فضلاً عن لغزَيْ الانتحار والأموال المختلسة من عمل المنتحر، فقد ظهر لغز أمواله المسحوبة من البنك والمجهولة المصير.

بدأ الضّابط بحثاً جديداً في بيت المنتحر بعد استصداره موافقة النّيابة العامّة على ذلك، لم يجد في منزل المنتحر خلا الرّتابة والمقتنيات الأساسيّة لحياةٍ عاديّة إلاّ مكتبةً كبيرةً تزخر بمئات الكتب القيّمة ذات الطّبعات الأصليّة فضلاً عن ألبوم صورٍ قد فُقدت كلّ صوره، وإن بقي التّعليق الكتابيّ المؤرّخ ما زال مخطوطاً بالخطّ الجميل نفسه ،وبشكل واضح تحت آثار الصّور المفقودة، وفي الدّرج الأعلى للمكتب وجد غطاء المسدّس الذّي انتحر المنتحر بواسطته، ودفتراً جلديّاً كبيراً، كُتب على صفحته الأولى بنفس الخطّ الجميل الذّي وُجد في قصاصة الانتحار "هذا ليس دفتر مذكّرات بل سِفْر إدانةٍ للسّجن الكبير".

"يبدو أنّ السّجن قضيّةٌ ملحّة على ذهن المنتحر" قال الضّابط هامساً لنفسه، استلّ سيجارةً من علبة سجائره، وبذل جهداً لإشعالها من قدّاحته القديمة، أخذ نفساً عميقاً، ثم جلس في المقعد الخشبيّ وراء المكتب، وطفق يقلّب صفحات الدّفتر الكبير. كلّ مجموعةٍ من الصّفحات عنونت بعنوانٍ منفصل، كانت العناوين مكتوبةً بخطٍّ واضح، قلبها الواحد تلو الأخر، ثمّ توقّف من جديد؛ ليغرز عقب سيجارته في المنفضة النّحاسيّة الموجودة على المكتب، وليشعل من جديد سيجارةً جديدة، أخذ نفساً بكراً منها، عاد وقلّب العناوين بحركةٍ سريعة دون أن يقرأها مرّةً ثانية، كانت عناوين غريبة، بدأت بعنوان "البلّورة" وتوسّطت بعنوان "كنتُ وحدي بين أوهامي وأطياف المنى ،والتقينا فبدا لي من أنا وأين أنا" وانتهت بعنوان "والآن أعود وحدي لكن بدون أوهامٍ وأطياف"، وفي عقب آخر صفحة كُتبت جملة:" ملاحظة :هناك أوهامٌ وأطياف".

فضوله الشّخصيّ والوظيفيّ أمليا عليه أن يقرأ ما كُتب بين دفّتَيْ الكتاب، قرّب الكرسيّ أكثر من الطّاولة، واتّخذ جِلسةً مناسبةً، وبدأ يقرأ ، ويقرأ ، ويقرأ ، وما انقطع يقرأ، إلى أن أنهى القراءة، كان ذلك بعد نهارٍ وليلة، أعضاؤه كانت قد تيبّست تماماً، وحواسّه استُفزّت حدّ الجنون، وملامحه فترت بمقدار جمود ميت، قلب الصّفحة الأخيرة، أغلق الكتاب، وأشعل سيجارةً أخيرة وجدها في علبة سجائره، أخذ نفساً عميقاً، وانزلق في الكرسيّ، لم يتابع كعادته

حلقات الدّخّان التّي يصنعها بنفاث سجائره؛ لأنّ دمعةً سخينةً كانت قد شوّشت نظره، وحجبت الغرفة عنه للحظات .

مدّ كفّاً كبيرة، ومسح الدّمعات الفارة بلا إذن، من جديد تناول ألبوم الصّور الموتور بصوره، قلّبه الصّفحة تلو الأخرى، قرأ كلّ ملاحظةٍ تعريفيّةٍ مكتوبةٍ تحت كلّ صورةٍ منزوعة، عرف اسم كلّ شخصٍ ورد ذكره في الملاحظات التّعريفيّة، تمثّلهم جميعاً صوراً ووجوهاً وقاماتٍ وضحكات ومواقف، فقد قرأ في الدّفتر عالم صاحبه كاملاً، تخيّل الصّور المفترضة التّي كانت فوق الملاحظات التّعريفيّة، وسمع صوت تمزيقها وإعدامها على يدَيْ المنتحر الذّي غادر العالم بعد أن غادره.

ورأى المنتحر كذلك، روحه سكنت جسده، كان ولا شكّ ربّ الكلمة، كلماته الجميلة السّاحرة نقلت روحه إلى جسده، أحسّ بالمنتحر يسكن أعضاءه، تحسّس وجهه وشعر أنّ قسماتٍ جديدةٍ قد افترشته، سارع إلى المرآة المعلّقة خلف باب الغرفة، وطالع وجهه فيها، زفر بارتياحٍ عندما رأى وجهه بقسماته التّي ألفها، وإن رأى في عينَيْه الذّابلتَيْن من سهرٍ وعناءٍ طويل نظرة المنتحر، لقد عاش المنتحر طويلاً، بالتّحديد عاش حياةً قصيرةً، ومعاناةً طويلة، في السّجن أحسّ أنّ وطنه مسجونٌ خارج الأسوار، وعندما خرج غدا ووطنه مسجونَيْن في معتقلٍ كبير اسمه وطن.

حُرم من كلّ شيء، بدايةً حُرم من حنانٍ اسمه أبّ وأمّ، في ما بعد حُرم من حنان التّي أحبّها بقدر حبِّ الأصـــداف للبحر، ابتعد عن

بحرها، ولكنّه بقي ما بقي يحمل في داخل صدفته صوت هديرها، ورائحة ملوحتها، وصورة هائج أمواجها، في ما بعد سُجن؛ لأنّه قال:" لا للحرمان". كان غريباً في وطنه، وعدوّاً في سجن وطنه، ضُرب حتّى نسي اسمه، وما نسي قضيّته، وخرج يجرّ الخذلان وقدماً عرجاء شبه مشلولةٍ محتجّةٍ بصمتٍ على العذاب الذّي أوقع في حقّها، وبدأت معاناته مع البلّورة، ضابط المخابرات الذّي حقّق معه، وبمعنىً أدقّ الذي أشرف على تعذيبه أخبره أنّه سيكون أسير بلّورته التّي سيتابعه عبرها دون توقّف، عندها هزأ منه، ومن ادّعاءاته، لكنّه عرف في ما بعد أنّه يملك بحقّ بلّورة سحريّة تراقب حركاته، وتنقل كلّ خلجاته، بل وتعدّ أنفاسه، وتحصي وجيب قلبه، لم تكن بلّورة زجاجيّة كتلك التّي يستعملها سحرة القصص الخرافيّة، ولكنّها كانت بلّورةً كهربائيّة، مدجّجةً بالمراقبين، والمتجسّسين ومربوطة بأحدث وسائل وأفراد المتابعة.

وأصبح سجين البلّورة، كان يعرف أنّ كلّ كلمةٍ يقولها تُنقل إليهم، وما كان يبالي بذلك، ولكنّه آل على نفسه أن يُصعّب عليهم مهمة مراقبته، كان يقضي أوقات فراغه في التّسكّع هنا وهناك، إلى أن ضاق ذرعاً بنفسه وبالبلّورة، فاتّخذ نظاماً مغلقاً لا يتخطّاه أبداً يريحه ويريح صاحب البلّورة، في النّهار يكون أسير عمله خلف صندوق المحاسبة، بعد ذلك يتناول الغذاء في مطعمٍ لا يغيّره، يتناول الوجبة نفســـها على الطّاولة نفسها، ثمّ يذهب إلى مكتبة الجامعة التّي

تقع قريباً من بيته، يجلس على الكرسيّ نفسه، ولساعاتٍ ستٍّ فقط، يقرأ نفس الكتاب، وبالتّحديد نفس الصّفحة، ثمّ يقفل راجعاً إلى بيته بعد أن يشتري طعام العشاء، يأخذ حمّاماً ساخناً وقد يكون بارداً، يكتب مذكّراته، يمضي ساعةً خارج زمن البلّورة ،ثمّ يخلد للنّوم، وهكذا دواليك. لم يخرق برنامجه المغلق ولو ليومٍ واحدٍ باستثناء يوم انتحاره الذّي كتب مذكّراته بلونٍ أحمر، وأكّد فيه أنّ الرّاحة والخلاص من الحياة ومن رقابة البلّورة آتيان لا محالة.

إذن فلغز المنتحر بات ظاهراً، فلقد انتحر احتجاجاً على سلطة البّلورة، كان المفتاح الموجود بين الصّفحة الأخيرة وما قبل الأخيرة هو كلّ ما بقي بعد المنتحر، حدّق طويلاً فيه، قلبه مرّاتٍ عديدة، كان متأكّداً من أنّ سرّ السّاعة الوحيدة الخارجة عن زمن البرنامج المغلقة حلّها في المفتاح، جرّبه على كلّ أبواب البيت، وعلى كلّ أبواب خزائنه، لكنّ أيّاً منها لم يكن المفتاح له، توقّف عند خزانة المنتحر الشّخصيّة، فتح بابها الأوسط، أزاح الملابس المعلّقة فيها، كانت روح المنتحر لا روحه هي التّي تسكنه، وتملي عليه فكرة الهروب، وفلسفة التّخفّي، وجد في خلفيّة الخزانة باباً خشبيّاً من الواضح أنّه قد صنع بمهارة، دسّ المفتاح في عين قفله، وأدراه، فانفتح الباب بأزيزٍ كبير، استجمع فضوله الذّي ذهب أشتاتاً في مهبّ الحيرة، وألقى نظرةً إلى ما وراء الباب، كانت غرفةً كبيرةً مطليّة بالأبيض، وليس فيها إلاّ مقعدٌ خشبيٌّ يتوسّطها وقد كُتب على الحائط بخطّ المنتحر:

"بنيتُ فردوسي وزخرفته
حتّى إذا ما تمّ ضيــّعته
أجريتُ في أنهاره كوثراً
فذاقه النّاس وما ذقــتُه"

جلس المحقّق على الكرسيّ، وشرد في عالمٍ من الحرّيّة، وهو يردّد الأشعار المكتوبة على الحائط تمنّى في داخله أن لا تكون البلّورة قد اكتشفت أيضاً هذا المكان، وبسرّه دون أن يعي ما يقول ،تمنّى أن تنزل النّوازل بالبلّورة، فتح علبة سجائره ليتناول سيجارة، لكنّها كانت فارغة، تأفّف وَفْقَ عادته، وأخذ نفساً عميقاً، وقال كمن يكلّم نفسه: "إذن على بناء هذه الغرفة أنفق صديقي المنتحر كلّ مدّخراته، يا له من شقيّ!!! أراد أن يملك ولو مكاناً واحداً على هامش الحريّة . . ."

حوقل طويلاً، ووجد نفسه يفكّر في إن كان قادراً على أن يملك ولو مكاناً واحداً على هامش الحرّيّة".

في اليوم التّالي كان قد قدّم تقريره النّهائيّ الذّي أُرفق باعتراف أحد زملاء المنتحر في العمل باختلاسه النقود المنسوب سرقتها إلى المتوفّي، وفي طيّه اتّهامٌ صريح للبلّورة بدفع مواطنٍ شريف للانتحار بعد ممارسة أبشع وسائل القمع والتّجسّس عليه. لم يُناقش تقريره أبداً كما كان يتوقّع، بل أُشيّر عليه بعبارة سرّي للغاية.

في المساء تســلّم قرار نقله إلى دائرةٍ عسكريّةٍ أخرى في أقصى

بقاع البلاد، مذيلة بختم البلورة، قرأ قرار نقله مراراً، طواه أكثر من طيّة، ثمّ نثره مزقاً في الهواء الذّي كان يداعب حلقات دخّانه الذّي ينفثه بشهوة.

فكّر طويلاً في الغرفة السّريّة البيضاء، اجتاحته رغبةٌ للجلوس فيها، على عجل حزم نفسه، وتوجّه إليها، عندما دخل إلى الشّقّة وجد كلّ شيءٍ كما تركه إلاّ الباب السّرّيّ فقد كان قد اختفى للأبد، وحلّ مكانه حائطٌ صلد يبدو أنّه عتيق، ابتسم ابتسامةً اتّسعت لتصبح قهقهةً هستيريّة دامية، أخذ نفساً عميقاً من سيجارته، وقال زاعقاً: "إذن فقد وصلت البلّورة إلى غرفة الحرّيّة ، اللّعنة، لذلك انتحر صديقي المسكين ."

في الصّباح وُجد الضّابط منتحراً في غرفة نوم صديقه المنتحر، وابتسامة غريبة على شفتَيْه، وليس إلى جانبه قصاصة كُتب عليها بخطٍّ واضح ومنمّق: "إنّنا مسجونون دون أن ندري"؛ لأنّ هذه العبارة كانت مكتوبةً على قصاصةٍ عند رأس منتحر على مستوى رفيع من الأهميّة، قيل إنّه صاحب بلّورةٍ سحريّةٍ تتجسّس على النّاس، وأنّه اكتشف بمحض الصّدفة أنّه أيضاً مسجونٌ مع المسجونين الذّين يطاردهم ببلّورته، مع فارقٍ بسيط أنّهم مسجونون داخل البلّورة، وهو خارجها، لذا فقد انتحر تمرّداً على السّجن أيّاً كان ، وترك بلّورته لشخصٍ لا يعرف عن لعنتها، إلى أن يعرف.

أبناء الشيطان

نور الربّ كان يشقّ سديم السموات ، وحيث سكينته كانت الملائكمة تسبّح بعظمته ، وتطوف حول عرشه القدسيّ المتربّع على صفحة الماء الممتدة عبر الأزل ، والسلام السرمدي يغشّي المكان ،في حين يتضوّع المسك والرضى من كلّ مكان ، ترانيم الملائكة وهفيف دثارها ، وصكيك أجنحتها الشفافة هو جلبة المكان الوحيدة، وعبر الزمن المغلق الذي لا يعرف نهاية أو بداية أو انقضاء أو توقّف تعمر روح الله السموات والأرضين وما بينهما.

وعند تخوم السماء الأولى يذبح إبليس المدجّج بالسلاح والغطرسة والنصر على مرأى من الملائكة مئات الألوف من الجن الفاسقة التي أباد أقوامها في الأرض ، تلك الأقوام التي طغت وفسقت وباءت بغضبٍ من الله ، دم القتلى الأحمر المشتعل يضيء السماء الأولى ،ويبثّ حمماً ونيراناً في الأرض التي تستعر بالحرائق وتبتلع على مضض قتلاها ومدنهم وحضاراتهم ، وتعود بكراً لا تحمل

ذكرى شعوب أو حضارات ، وتنفي بجدبها وقحطها أنّها كانت قد أسلمت جسدها لأي أمّة . يختلط صوت إبليس مع صوت تسابيح الملائكة ، صوت مزاميره الفخورة وأبواقه النحاسية تحدث جلبة على صفحة الماء حيث عرش الربّ ، الوجوه الملائكية النورانية تزداد صفاءً ، الرضى يرتسم عليها ، فقد عاد إبليس على رأس جيشٍ مظفّر أرسله الربّ لمحو ذكر الجن عن الأرض.

يهبط إبليس عن حيوانه الناري ، ويسجد بين يدي حضرة الربّ ، وعلى جانبيه الملائكة ساجدين ، سكينة الرب تباركه وتجعله من المقربين ، وحين يغادر مقاعد الرحمن يشعر بزهو خاص يتلبّسه، ، يرمق الملائكة بعينيه الحمراوين المسكونتين بالقتل والنصر وإطاعة الربّ ، يستصغر طاعتها ، ويقلّل من شأن عملها ، فقد عمل وحده ما لم تفعله كلّ الملائكة ، أباد كلّ الجنّ الذين على الأرض ، وأرضى الرحمن ، وانتصر لأوامره.

يشعر أنّه غريب وحيد فقد أباد كلّ بني جلدته عن بكره أبيهم ، وبقي فرداً وحيداً ، يسارع في خطواته ،بعض الشّرر يتطاير من جسده الناري ، ويتساقط على جناح أحد الملائكة ، ينتفض الملاك ، ثم يعود إلى تسابيحه وعبادته الأزلية الأبدية.

يطوف إبليس مرة أخرى حول عرش الربّ ، يسبّح طويلاً ، ثم يعود إلى مختلاه متعباً مرهقاً ، ولكن سعيداً،حيث تنتظره (يهوا) تلك الجنية الحمراء الساحرة التي اقتادها من الأرض ، قالت له إنّها

ابنة ملك الأصقاع السبعة ، كان يعلم أنّها ليست أكثر من جارية ، لكن لا بأس ،فجمالها الأخّاذ ، ووهجها الساحر يجعلانها تعتلي عرش قلبه ، ومرتقى روحه ، تتمايل بدلال في نعائم الخلد ، وتحت وارف أشجاره، تغدو بلهيبها الأحمر ، وشعرها العسجدي ، وعينيها الناريتين كأنّها قطعة هاربة من الجحيم تستظلّ بعليل الجنة ، يراقبها بشهوة ،وهي تأكل من ثمار الجنة ، وتغرف من كنوز المكان ، وتتقلّد من جوهره . الجوهر في كلّ مكان ، والذهب والماس مطروح في الطرقات وفي الأنهار ، ولا أحد يبالي به هنا إلا إيّاها ، يقترب منها ، يتعشّق احتراقها الساحر ، تدندن بكلامها الأرضي ، يزجرها بشدّة ،ويطلب منها أنّ تسبح باسم الرب شأنها شأن سكان السماء، تمتلىء رعباً منه وتبدأ تسبيحها.

اعتاد الملائكة أن ّ يزجروا تلك القطع النارية الملتهبة المسماة بأبناء إبليس ، حفنة قليلة هم ، لكنّهم يملؤون السماء صراخاً وشجاراً وبكاءً، يكيدون لبعضهم البعض ، يضربهم والدهم بأسواط من ذهب كي يسبحوا باسم الله ، ورثوا عن أبيهم البطش والذكاء والِكبْر، وعن أمهم الجحود والجشع والطمع ، السماء أمامهم بلا نهاية ، والكنوز تفيض ولا تعرف نهاية ،وعلى الرغم من ذلك كثيراً ما يجدهم يتدافعون حتى يكادوا يسقطون عن شفير جهنم لأجل قطعة زمرد صغيرة أو بلورة ماسٍ صغيرة.

الملائكة تســـتعيذ باسم الرحمن كلما مرّت بهم ، فقد أرهقوهم

إزعاجاً وصراخاً ،واستنفذوهم إيذاء وكيداً، يعيثون فساداً في الفردوس ، يقطّعون الثمار ، ويقذفون الملائكة بها ، يقصفون الغصون التي ما تكاد تتخلع ، حتى تنمو غيرها من جديد ،وهي محمّلة بالثمار التي تثقل الغصون الدانية.

(يهوا) تلّح على إبليس ليحملا الأبناء ويعودا إلى الأرض حيث بدايتهم ." بكنوز الجنة نستطيع إعمار الأرض ." توسوس في أذنيه، ولكن إبليس ينفث بعصبية ناراً مشتعلة في وجهها ،يسخر من جهلها ، ويعجب من وقاحتها ويقول لها :" لا يمكن أنّ ننقل كنوز الجنة إلى الأرض ، بدايتك لم تكن من الأرض بل من جهنم ، سبحي باسم الرب الذي لم يعدك إليها؛ ليعذبك بلهيبها وحجارتها ".تصمت (يهوا) مجبرةً، ولكن الحلم مستمرّ ، وكنوز الجنة تُسيل لعابها السام .

زفرات إبليس تمتدّ حتى الأرض ، تحرق شيئاً منها ، ألا يكفي مصيبته (بيهوا) الجشعة وبأبنائها الجهنميين حتى يأتيه ذلك الآدمي الطيني؟؟ يراقبه ليلاً ونهاراً هو وذلك الكائن الذي يشبه مدر البحيرات واسمه حوّاء ، كم هما سعيدان!! السكينة تسكن حياتهما،الملائكة تحنوعليهما، البارحة رأى الملائكة أجمعين تسجد لذلك الآدمي بأمر الربّ . كيف يدنيه الربّ منه وهو ليس إلا قطعة من أديم الأرض التي عاثت سنابكه فساداً فيها،وهو مُهملٌ لا يحظى بأيّة امتيازات؟؟ سينتقم لنفسه،سيسرق كنوز الجنة،ويعود إلى الأرض

مع(يهوا) وأبنائهما،ولكن ليس قبل أن يفتن آدم وحواء ، ويسومهما غضب الربّ .

الربّ يأمره بالسجود للآدمي العجيب ، يرفض ذلك ، غضب الربّ يزلزل السماء ، يهتزّ عرشه القدسي من شدّة غضبه ، الملائكة تتمسك بعرشه ، يعلو تسبيحها ، تطلب رحمته ، يطرده الرب وأبناءه من الجنة ، يخرج منها مدحوراً محسوراً. آخر نظرة على الجنة تعقبه ألف حسرة حيث آدم وحواء يستحمان في عين الفردوس. حيّة قريبة تمرّ من المكان ، يقفز في جوفها ويتسللّ إلى الجنة ، يغوي آدم وحواء ، يعصيان أمر الرب الذي يطردهما من الجنة أيضاً.

هناك من السماء يهبط آدم وحواء، وفي أثرهما يهوا والشيطان وأبناؤهما، ومن دون كنوز الجنة التي أُغلقت دونهما وإلى الأبد.

في أرض قاحلة جدباء تبدأ الحياة الأرضية ، وتبدأ حرب شعواء لا تعرف هوادة بين الشر والخير، وفي شعاب الأرض يتكاثر أبناء الشيطان ، ويزدادون فساداً ، ويسيرون على وصية والدهم بإغواء البشر،وإطعامهم للنار، يقتلون الأنبياء،ويعبدون الطاغوت ،ويُطردون من رحمة الله تعالى،يفسدون في كلّ مكان، يرهقون البشر الآمنين،يحتلون البلاد،يلبسون كلّ الأقنعة،يعيشون على امتصاص ماء الدهماء،ويتربّعون على مصارف المال التي ورثوا عشقها من أمهم (يهوا) التي تصطلي في نهار جهنم،كما ورثوا كِبرهم المقيت من أبيهم إبليس،يكذبون على السماء وعلى الربّ ،يكبّلون البشر

بظلمهم ووحشيتهم،ويسمّون أنفسهم (شعب الله المختار) ... !!!

وفي زمن ما يداهمون مدينة السلام،ويسكنون القدس،يعذبون أهلها،ويستبيحون دماء أهلها،ويعيدون سيرتهم البغيضة فيها،فيرهقون الناس،ويشيعون الفاحشة،ويفسدون الذمم،وينصبون أنفسهم آلهة،تساندهم قوى الظلام والشرّ،يحفرون تحت الأقصى يبحثون عن هيكلٍ مزعوم...وفي السماء ربٌّ غاضب عليهم،وفي الأرض فلول من عبدة الله ثابتون على الحق،يجاهدون ما بقيت الدنيا،وتبقى ذاكرة المكان تصيح:"يا قدس..إلى الجهاد،نحن ماضون.وتصيح أشجار القدس إلى يوم الدين:"يامسلم ورائي يهودي تعال واقتله:"

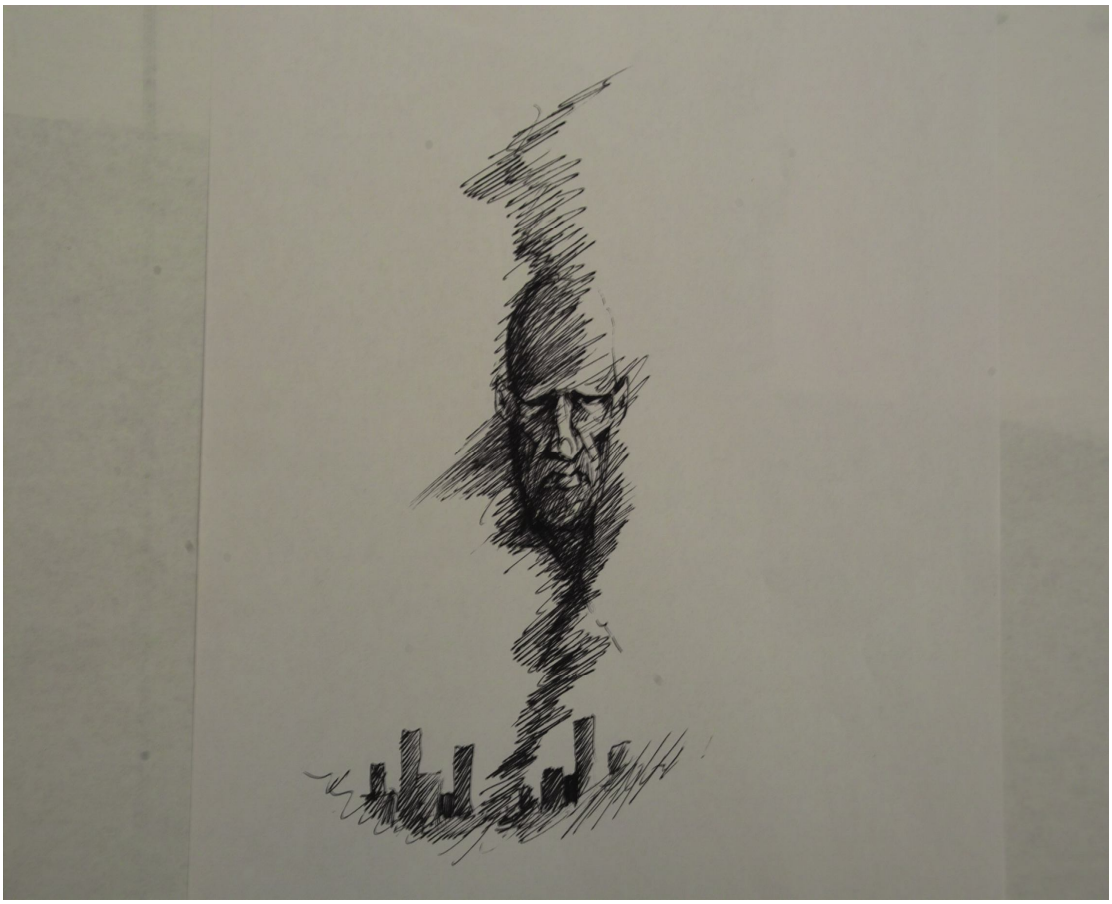

الشيطان يبكي

ليت النبي سليمان العظيم كان قد حبسه في قمقمٍ نحاسي،كالذي قرأ عنه في قصص ألف ليلة وليلة،لو فعل ذلك لاستطاع الآن أن يعود إلى سجنه،فذلك السجن سيكون رحيماً معه،شفيقاً به،ولن يشعر فيه أنّه مهدور القيمة،غير مهيب الجانب،وإن كانت العودة إلى سجنه تبدو هي الأخرى أمراً بعيد المنال.

ماذا حدث للبشر؟إنّه الشيطان فكيف يغدو في أيديهم لعبةً خرقاء ترجو الخلاص والرحمة.

"ألم تسمعوا عني؟!أنا الشيطان،أنا عدو الربّ،أين جبروتي؟" قال الشيطان بصوته اللئيم الخشن ،فارتجّت السماء والأرض،واضطربت الأمواج،ثم استكان صوته ،وغاب في موجة أسطورية من البكاء.

تساقطت دموع الشيطان كسفاً من النار على الأرض ،ووصل صوت بكائه وشهيقه إلى عنان السماء.الملائكة أمرته بحزم أن يكفّ

عن إزعاجه للسماء،وحذّرته من كسف النار التي أحرقت الكثير من الأماكن في الأرض،لكنّ الشيطان استمرّ في بكائه النادر،تمنّى من قرارة نفسه ،وكاد يتمنّى من أعماق قلبه إلاّ أنّه تذكّر أن لا قلب له أن يجد أحداً يرثي له،هو في حاجة إلى الحبّ،نعم الشيطان لأوّل مرة عبر تاريخه الوحشي يحتاج إلى الحنان،حتى أنّه فكّر في أن يقبّل أعتاب عرش الرحمن،ويطلب مغفرته،ويقلب بذلك تاريخ الديانات كلّها ،وليجد البشر بعده شيطاناً بمثل نشاطه وإخلاصه لقضيته،ولكنّه تذكّر أنّ الشهب في انتظاره في السماء الأولى ،ولن يستطيع أبداً أن يدنو من السماء.

بعد ساعاتٍ من بكائه المتّصل أُرسلتْ فرقة عسكرية دولية لمكافحة الشّغب ،ومنعته إلى الأبد من البكاء ،وهدّدت بالزجّ به في أبشع أنواع المعتقلات إن عاد إلى جريمة البكاء التي تحرق الأرض،وكتبت قي تقريرها :"إنّ عملية إقناع الشيطان قد تمّت بطريقة سلمية وحضارية".عندها عجب الشيطان من اختلاف المصطلحات من عصر إلى آخر.ولكن هيئة الأمم المتحدة كانت رحيمة معه إذا سمحت له بأن يشعر بالأسى كما يشاء،بل إنّها أبلغته رسمياً بحقّه بالحزن حتى الموت.

كان شيطاناً رجيماً في زمن النبي سليمان العظيم، كان يوسوس في صدور الناس ،ويرهقهم فتنة وشراً، وأخيراً ظفر به سليمان فحبسه لمليون سنة بين لجج البحر وزبده، عانى الأمرين في حبسه،

وانتظر ثانية فثانية ؛ليخرج من سجنه، ويمارس تسليته الوحيدة، ولكنّه الآن يتمنى لو أنّ سليمان موجود ليعيده إلى سجنه ،فذلك المكان المائع المضطرب أرحم به من البشر.

كان شيطاناً عندما كان البشر بشراً، لكنّه الآن يجهل ماتراه سيكون بعد أن غدا البشر شياطين. كان يتوقع أن نشاطه الشرير المكبوت لمليون سنة سيفجّر الدنيا خبثاً وشراً، ولكنّه كان مثل عيدان كبريت في حقل مفرقعات نارية، الدنيا كانت تمور بخبثها وشرّها، حاول جاهداً أن يجد له مكاناً في عالم الشرّ، لكنّه بدا تلميذاً غرّاً في جامعة عريقة، لقد لهى الناس به، وحار في ألاعيب شرّهم، وعجب :"أنّى لهم كلّ هذا الشّر، وهو لم يلقنهم إيّاه؟!!".

كاد يموت من الجوع في ذلك العالم، ولم يجد من يشفق عليه، عزاؤه الوحيد أن لا أحد من الجائعين يجد أحداً ما يشفق عليه ويرحم جوعه وعوزه.أحدهم عرض عليه أن يستثمر اسمه الشرير المشهور في مشروعٍ ، إذ أراد أن يفتح تحت اسمه مقهى شهيراً للجنود الذين يعسكرون في مكان ما في العالم، ويلهون بجماجم الأطفال الأبرياء،ومع أنّه وافق على ذلك إلاّ أن ذلك البشري اللعين قد خدعه، ولم يعطه شيئاً مقابل استثمار اسمه ،بل إنّه كاد يرسله إلى مكان خلف الشمس كما قال له.وتساءل الشيطان هل وصل البشر إلى الشمس أيضاً؟!

شعر الشيطان أنّ زمنه قد ولّى من دون رجعةٍ ، وقد جاء زمن

البشر الشياطين، تذكّر أمجاده ،وكاد يبكيها، ولكنّه تذكر في الوقت المناسب دموعه الملتهبة وما ستجنيه عليه من كوارث.

تساءل من سيكون بعد الآن؟ شعر أنّه ولأول مرة في حياته يحبّ سليمان العظيم ؛لأّنه حماه زمناً طويلاً دون أن يدري من أولئك البشر الذي يشارفون على الوصول إلى شفير جهنم، وشكّ في أنّهم سيسمحون له بأن يقودهم إلى هناك كما تذكر الكتب السماوية وكما تحدّى الرب بوقاحة في الزمن الغابر.

حسنٌ أنّ بعض البشر باتوا يعبدونه،ولكن ليس خوفاً منه،ولا أيضاً اعترافاً بفضله،مع أنّه لا يذكر أنّ له فضلاً عليهم،ولكن حبّاً في لطفه وإعجاباً في رقته مقارنة مع فظاظتهم وقسوتهم،تمنّى لو أنّه يستطيع أن يحرق أولئك الذين يعبدونه ؛لأنّه رغم كلّ شيء يكرههم، ولا يستطيع أن يهبهم غير الكره.في زيارة سريعة قام بها لهم عجب من تلك السلوكيات العجيبة والشريرة التي سبقوه إليها،خمّن أنّهم تفوقوا عليه،وكاد يطري عليهم لولا أنّهم طردوه ،ورفضوا زعامته،وأعلنوا أنّهم الشياطين في هذا الزمن.

عنوان المؤلفة:سناء كامل شعلان
الأردن-عمان١١٩٤٢-ص.ب:١٣١٨٦
Selenapollo@hotmail.com

اسم لوحة الغلاف:"إحساس"
للفنّانة التشكيلية: باسمة بني يونس
لوحات القصص للفنّان التشكيلي :ياسر وريكات.
التصوير الفوتغرافي للفنّان:يوسف مريّان.

مطبعة الجامعة الأردنية